أدون وأماكن عبادته في لبنان

د. مصطفى محمود سبيتي (*)

ـ تمهيد

ـ من أهم الظواهر الطبيعية في الوجود، ظاهرة الحياة التي تتجسد في عوالم الإنسان والحيوان والنبات، ومبدأ الحياة والخصب يقوم على فكرة الذكورة والأنوثة، وهذا الإزدواج هو الشرط الضروري للولادة والإخصاب، وتجدد الحياة.

كان لبيئة لبنان الطبيعية أثر كبير على طباع وتصرفات سكانه، فقاموا بدمج ما بهم من رغبات إيمانية، بروعة الطبيعة وجلالها، فأنسنوها وقدسوها واعتبروها ملجأ للآلهة. وخير دليل على علاقة الفينيقي الوثيقة بالقوى الطبيعية «وادي نهر أدون» أو وادي «نهر إبراهيم» فمن خلال هذه التسمية يتضح لنا مدى أهمية الوادي عند الفينيقيين حيث أطلقوا عليه إسم إلههم المحبوب «أدون»(**) إله الخصب وجعلوه مركزاً له ولأبيه كبير الآلهة «آيل» ولحبيبته إلهة الجمال «عشتروت»، فضلاً عن أنهم جعلوا من هذا الوادي مركزاً للحج الديني، بحيث يتوافد إليه المتعبدون من جميع الأنحاء المجاورة، لممارسة طقوس دينية معينة (الأدونيات) من شأنها إعادة الإله أدون إلى الحياة بعد موته، وفي ذلك إشارة لإعادة الحياة إلى الطبيعة، بحيث أن أدون كان إلهاً للخصب والإنبات، مما يدل على أهمية الوادي من الناحية الدينية، وعلى أنه كان وادياً مقدساً عند الفينيقيين.

١ ـ الخصائص الجغرافية

لـ «وادي نهر إبراهيم»

يتفرد لبنان بالعديد من المقومات الجغرافية والمورفولوجية التي تميزه عن باقي دول الشرق

(*) أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ الفرع الخامس.

(**) «أدون»: هو إله الخصب عند الفينيقيين، ارتبطت عبادته بعبادة «عشتروت» إلهة الجمال، أطلق عليه في العهد اليوناني «أودنيس»، حيث تغير إسم «أدون» بزيادة السين في آخره إلى «أدونيس»، أي سيدي ومولاي، وفي العهد الروماني سمي «باخوس»، الذي تلازمت شعائر عبادته مع معاقرة الخمرة وممارسة الطقوس الأورجية، وقد أسماه العبرانيون «تموز» تشبيهاً بإله الرافدين (تموز) المختص بالحب والإنبات، أما في مصر فإن «تموز» يصبح «أوزوريس»، وبهذا الإسم أصبح ـ أدون ـ أشهر إله بين آلهة الفينيقيين.

الأوسط، فالمنظر الجبلي العام، والأودية، ونظام بنية الطبقات الصخرية، وعوامل التعرية المختلفة في تشكيل الصخور.... كل ذلك ميَّز لبنان عن باقي الدول المجاورة له.

تتميز كتلة جبال لبنان الغربية بالعديد من الظواهر الجيومورفولوجية، ككثرة الفوالق والإنكسارات الطولية التي تتخللها أيضاً إنكسارات عرضية ثانوية تقطعها من الشرق إلى الغرب. وكانت هذه سبباً رئيسياً في وجود ممرات جبلية طبيعية من الساحل إلى الداخل. ونرى ذلك واضحاً في منطقة «وادي نهر إبراهيم»، ذلك لأن تلك الإنكسارات أدت إلى خلق أودية عميقة مخنوقة.

وبما أن الأودية اللبنانية تختلف في عمقها ومجراها وشكلها باختلاف نوع الأرض الجارية فيها، يمكننا أن نقسمها إلى ثلاثة أقسام:

- الأودية السهلية وهي مجاري قليلة العمق، لا يزيد عمق الواحدة على العشرة أمتار.

- أودية الهضاب وهي معتدلة العمق وقلما تزيد على ثلاثمائة متر.

- أودية الجبال وهي الأودية الحقيقية، وتتصف بأنها صخرية وعميقة، وتناسب إنحدار الجبال بصورة عامة.[١] من أهم هذه الأودية وادي نهر الكلب، وادي نهر إبراهيم، وادي قاديشا... إلخ.

لقد نجحت أعالي الأنهار الجبلية اللبنانية، ومنها نهر إبراهيم في شق الصخور الجيرية رأسياً وحفر خنادق نهرية عميقة جداً. وتتميز هذه بجدرانها العالية الحائطية الشكل كما أنها تتخذ دائماً شكل الحرف (V) وأهم مثال على ذلك هو خانق أفقا المحفور في الصخور الجوراسية والذي يتميز بسماكة صخوره الجيرية.[٢] يمكننا أن نستنتج بأن وادي نهر إبراهيم هو مثال على الأودية اللبنانية العميقة والحادة، المحفورة في الطبقات الصخرية الجوراسية.

ينبع نهر إبراهيم، الذي عرف قديماً بنهر «أدون»، من مغارة أفقا عند سفح جبل عالٍ، ومن نبع آخر ثانوي في مرتفعات العاقورة يسمى بـ «نبع العاقورة» أو «نبع الرويس». تغذي هذا النهر في أعاليه بعض الينابيع الثانوية، منها نبع الحديد في قرطبا. ويجري النهر في الوادي بصخب واندفاع، ويصب في البحر على بعد ٦ كلم جنوبي مدينة جبيل. ويبلغ طوله حوالي ٣٠ كلم، ومساحة حوضه ٣٣٣ كلم٢.

إلى الشمال من منبعيه في أفقا والعاقورة، هناك مناطق عليا لحوض النهر تتصف بأنها متقطعة بسبب المجاري النهرية شبه الجافة، حيث لا تعرف المياه إلا في فصل الشتاء، في الوقت الذي يعتبر النهر دائم الجريان في أسفل مناطق منبعيه.[٣] كما يشكل نهر إبراهيم الحد الفاصل بين قضائي كسروان وجبيل، بحيث تصبح بلدات قضاء كسروان عند ضفته الجنوبية، وبلدات قضاء جبيل عند ضفته الشمالية.

٢ ـ أثر البيئة الطبيعية على الفكر الديني

إن معالم الجغرافية وطبيعة الأرض هي المقدمة السابقة لتاريخ الإنسان، ومن يريد التحدث عن تاريخ إنسان لبنان، ومظاهر حضارته، يكون ملزماً بفهم مؤثرات جغرافية

(١) فضل الله، عبد الرؤوف، ـ لبنان دراسة جغرافية، الطبعة السادسة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٩، ص ٥٣.
(٢) فضل الله، عبد الرؤوف، ـ المرجع نفسه ص ٢٨.
(٣) فضل الله، عبد الرؤوف، ـ المرجع نفسه ص ٨٦.

موقعه، ومجرى يوميات جباله وسواحله لأن «هذه المؤثرات مع اليوميات التي تصحبها فصوله، تداخلت في هندسة فكر الإنسان فيه، فحكمت التاريخ والثقافة، وتشكلت معهما، بحيث لا يمكن فهم لبنان الإجتماعي وحياة إنسان لبنان التاريخي بدونها»(٤).

فقد كانت أرض لبنان منذ القدم، صعبة المسالك وقليلة الخصب، لكنها وفرت للبناني حماية وأجواء حرية ودوافع بحث عن المجهول، كما أثارته رهبة الطبيعة وجبروتها عند قمم الجبال الشاهقة، أو في الأودية العميقة، أو مجاهل الغابات ونمَت لديه نوازع التسامي والخشوع أمام المطلق البعيد(٥).

وبالإضافة إلى صعوبة وقسوة طبيعة الأرض اللبنانية، فقد ترك منظر التغيرات الكبرى التي تطرأ كل سنة على وجه الأرض أثراً قوياً في أذهان الناس في العصور القديمة، وبعثهم إلى التأمل في أسباب هذه التحولات الواسعة العجيبة(٦).

ولفهم ما يجري حواليه من حوادث طبيعية وكيفية معالجتها، حاول إنسان ذلك العصر ملء الفراغ الذي يكتنف معلوماته البدائية ببعض التفسيرات الفلسفية وبعض الإستنتاجات، فرأى بأن العلاقة وثيقة بين حياته وحياة الطبيعة، وأدرك بأن القوى التي تجمد الأنهار وتجرد الأرض من نباتاتها، تهدده هو أيضاً بالهلاك. لذلك حاول أن يتجنب تلك المصاعب بشتى الطرق فكانت وسيلته الأولى السحر(٧).

واعتقد أنه بواسطة الرقى والتعاويذ يمكن أن يسيطر على سير الفصول والتغيرات الطبيعية. وعلى مر الزمان تقدمت المعرفة ببطء وبددت الكثير من تلك المفاهيم. فاقتنع الإنسان بأن تعاقب الصيف والشتاءوالربيع والخريف، لم يكن نتيجة المراسيم السحرية، بل تصور أن نمو الزرع وموته، وولادة المخلوقات وموتها، إنما هي نتيجة لازدياد قوة كائنات إلهية، وأن هذه الكائنات تولد وتموت، تتزوج وتلد طبق حياة الإنسان(٨).

وإن تكن هيبة الطبيعة هي التي فتحت أمام إنسان لبنان باب التعبد للقوى التي افترض أنها تحكم قدره وتنظم عالمه، فإن ظروف البيئة التي عاش فيها، والتنوع المكاني المتباين الملازم لها، مع ما يتطلبه هذا التنوع من تنوع بالخبرات الإنسانية، وما يفرضه من مشاعر واختلاجات نفس، هي بدورها وجهت له طقوس تعبده، وأعطتها أشكالها؛ كما عينت درجة انفعالاته، ومدى أحاسيس التملك للطبيعة في نفسه مع مشاعر الإندماج بالقوى التي تسيرها(٩).

كل هذا منح إنسان لبنان ذهنية إنسانية متفردة بنوازعها وانفعالاتها مع بيئته الطبيعية. فأرض لبنان لا تعطي إلا بجهد شاق من الإنسان، وهذا الجهد الذي اشترطته الأرض منح اللبناني شعور السيادة على خصبها، فنمَت فيه بدورها رغبة الإستنبات في مصاعبها وكأنها رغبة الخلق من العدم.

لقد أحس اللبناني القديم بالمسؤولية التامة

---

(٤) الحوراني، يوسف، ـ لبنان في قيم تاريخه، الطبعة الثانية، دار النهار، بيروت ١٩٩٢، ص ٢٥ ـ ٢٦.
(٥) الحوراني، يوسف، ـ المرجع نفسه ص ٢٨.
(٦) فريزر، جايمس، ـ أدونيس، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، دار الصراع الفكري، بيروت ١٩٥٧، ص ٨.
(٧) Gold Schmidt, Walter,-Exploring The ways Of Man Kind, University Of California, Los Angeles 1960, p475.
(٨) فريزر، جايمس، ـ المرجع السابق، ص ٩.
(٩) الحوراني، يوسف، ـ المرجع السابقص ٧٦ ـ٧٧.

نحو نفسه، وأرضه، ومصيره في مصاعب جباله، فلم يسلم بهذه الجبرية ولم يعترف بأية مشيئة غيبية حرة التسلط في تصريف شؤونه. كما أنه لم يكن يرهب الطبيعة رهبة استسلام مطلق لقواها وأقدارها؛ إنما يحس بالمشاركة في إدارة شؤونها، إن لم يكن بالفعل فبالرغبة في البذل من أجل هذه المشاركة. لذا كان اللبناني حراً أمام قوى الغيب وليس عبداً لها. ومن هنا تبرز محاولة الإندماج بالطبيعة أي عملية أنسنتها أكثر مما هي عملية تأليهها[١٠].

من أهم الظواهر الطبيعية في الوجود ظاهرة الحياة التي تتجسد في عوالم النبات والحيوان والإنسان. ومبدأ الحياة والخصب يقوم على فكرة الإزدواج شخصها الفينيقي قديماً بالذكورة والأنوثة. هذا الإزدواج هو الشرط الضروري للولادة، والإخصاب ولتجدد الحياة.

فكان أبرز الآلهة المتأنسنين «إيل» وهو الإله الذكر، أي الأب المخصب، و«عشتروت» الإلهة الأنثى وهي الأم المخصبة، لكن الأب لا يكون أباً والأنثى لا تكون أماً إلا بالنسبة إلى كائن ثالث اتخذ منهما طريقاً إلى الحياة، هو الإبن المولود منهما. وهذا الإبن هو انبثاق الخصب والحياة وتشخيص جوهري لهما. وقد دعي هذا الإله الإبن بإسم «أدون» أي السيد.[١١] لذا كانت الآلهة تظهر ثالوث جبيل (إيل، البعلة عشتروت، وأدون)، الذي يقابله ثالوث صيدا (البعل، عشتروت، وأشمون)، وثالوث صور (البعل، عشتروت، وملكارت)[١٢].

وهكذا نرى بأن القداسة في لبنان لم تنشأ من ذكرى لإنسان عظيم، إذ أوحت طبيعة أرض لبنان ذاتها بمشاعر القداسة قبل بدء التاريخ فيه، وقبل انتشار الأساطير أو نشوء الرسالات الدينية، فهي جاءته مباشرة من الغيب ومن رهبة المجهول وهيبة الطبيعة.

٣ ـ ظاهرة الحياة المتجددة والعقيدة الدينية

اعتبر الفينيقي أن ظاهرة الموت، هي حدث طبيعي يحكم أن يليه حدث انبعاث جديد، فموت الطبيعة في الخريف والشتاء، شكل مقدمة لإعادة إحيائها من جديد في الربيع والصيف، لذا فإن فكرة الموت تفرض حتماً فكرة الحياة.[١٣] كذلك اعتقد بأن هناك رابطاً وثيقاً يجمع بين حياته وحياة الحيوان والنبات، فمبدأ الحياة والخصب عند مختلف الكائنات واحد لا يتجزأ. لذلك اعتبر أن نمو الزرع وقوته، وولادة المخلوقات الحية وموتها، إنما هي نتيجة لقوة أو لضعف كائنات إلهية تتحكم بالطبيعة وبالإنسان. ومن أجل الإستمرار في الوجود وانتصار الحياة على الموت كان لا بد من مؤازرة تلك الآلهة.

تجسدت ظاهرة الحياة المتجددة بالثالوث الكنعاني ـ الفينيقي، بشكل يبرز مبدأ الوجود والتجدد، والحياة. فقد اعتمد اللبنانيون منذ عصورهم القديمة هذا المبدأ وأقروه وجوهاً ثلاثة في وحدة جوهرية حياتية، نبعت لديهم من واقع الخصب في الحياة المتجددة والمتكاثرة. فكان الوجه الأول من هذا الثالوث الإله الأب «إيل»، وتظهر النصوص القديمة «إيل» على أنه إلهٌ مطلق متعالٍ، عالمي الوجود، «خالق الخلائق»

(١٠) الحوراني، يوسف، ـ المرجع نفسه،ص ٨٧.
(١١) خوري حرب، أنطوان، ـ الديانة اللبنانية القديمة، منشورات مؤسسة التراث اللبناني، بيروت ١٩٩٣، ص ٩.
(١٢) الماجدي، خزعل، ـ المعتقدات الكنعانية، دار الشروق، الأردن ٢٠٠١، ص ٢٣٦.
(١٣) Gold Schmidt, Walter,-Exploring The ways Of Man Kind, op. cit, p 486

(بـ نـ ي / بـ نـ و ت)، وهو يشخص بشكل إنسان طاعن في السن، ويلقب بـ «أبي السنين» (أب شنم). ومن الألقاب الأخرى «لطفان» أي إله اللطف والمحبة. ويتلازم إسم «إيل» في النصوص الأوغاريتية مع الثور فيسمى «ثور إيل»، ذلك لأن الثور في الشرق الأدنى، كان يرمز إلى القوة التناسلية والقدرة على الإخصاب(١٤).

وتظهر النصوص القديمة «إيل» بصورة أب طاعن في السن يعلو جبينه قرنا ثور، ومن هنا نرى مدى ارتباط «إيل» بالخصب والزمن. فقد اكتسب، بالإضافة إلى صفاته السابقة، صفة «إله الزمن»، كما أن كلمة قرن لها مدلول زمني بالإضافة إلى علاقتها بالثور، وكلا المدلولين ارتبطا بالإله «إيل». أما مقام هذا الإله فكان أفقا، وتحديداً المكان الذي ينبع منه «نهر أدون»(١٥). وقد عُرف «إيل» عند اليونان بإسم «زوس»، وعند الرومان بإسم «جوبيتير».

أما الوجه الثاني من الثالوث الفينيقي، فقد تجسد بالإلهة «عشتروت»، التي مثلت العنصر الأنثوي. فكانت المرأة في المطلق، أي الأم والزوجة والشقيقة والعشيقة... في آن. وهي أيضاً إلهة الجمال والحب، بالإضافة إلى كونها إلهة الخصب ومكثرة النسل(١٦).

وبما أن الديانة الفينيقية القديمة ديانة سامية تقوم بجوهرها على تأليه قوى الطبيعة، اعتبرت إلهة الأرض، أي بمعنى آخر كانت «عشتروت» رمزاً للأرض، فيما كان «إيل» رمزاً للسماء.(١٧)

وكان لعشتروت ألقاب عديدة، أبرزها «السيدة» و«ملكة السماوات» و«أم الآلهة». عرفت بإسم «عشتار» عند البابليين و«إيزيس» عند المصريين و«أفروديت» عند اليونان و«فينوس» عند الرومان، واصطلح العرب على تسميتها تارة بـ «الزهرة» وتارة أخرى بـ «اللات» أو «العزة»(١٨).

وقد أقيم لعشتروت تماثيل وأنصاب عديدة، تبرز خصائص الأمومة والأنوثة، فتجسدت مثلاً بشكل «أم مرضع» تحتضن طفلاً، وذلك لإبراز فكرة العطاء والخصب والحياة. فقد كانت عشتروت شفيعة النساء الحوامل اللواتي كن، بعد أن يتخلصن من آلام الولادة، يقدمن لها النذور ويحرقن أمامها البخور.

جسد الفينيقيون الوجه الثالث من الثالوث الفينيقي القديم بالإله الإبن، وهو الإله الشاب الجميل «أدون»، الذي يعني باللغة الفينيقية «السيد». وعندما انتقلت عبادته إلى بلاد اليونان حوالي القرن السابع ق.م. حوّل الإغريق هذا اللقب إلى إسم علم، فأصبح «أدون» يعرف بـ «أدونيس» ومن ثم «ديونيسوس» Dionysus(*). و«أدون» هو «البعل» الذي ورد في نصوص «رأس شمرا» مترادفاً مع إسم «هدهد»، وكلمة «هدهد» تعني في العربية «هدر وهدم وحطم بصوت شديد»، فيكون الإسم صفة للبعل «أدون» إشارة إلى الرعد القوي الذي يترافق مع هطول المطر. وكانت مهمة هذا الإله إخصاب

(١٤) خوري حرب، أنطوان، المرجع السابق،ص ٩ ـ١٠.
(١٥) Cotterell, Arthur,-Dictionary of World Mythology, Oxford University Press, Oxford 1997, p24
(١٦) خوري حرب، أنطوان، المرجع السابق،ص ١٠.
(١٧) حتي، فيليب، ـ تاريخ لبنان، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٥، ص ١٦١.
(١٨) الحوت، محمود، ـ الميثولوجيا عند العرب، الطبعة الثانية، دارالنهار النشر، بيروت ١٩٨٣، ص ٨٧.
(*) (تجدر الإشارة إلى أنه أقيم لـ «ديونيسوس» تماثيل عديدة تمثله برفقة عناقيد العنب التي ترمز إلى الخمر، ذلك لأن طقوس عبادته كانت تستدعي معاقرة الخمر).

الأرض وزرع بذور الخير والعطاء والمحبة والسلام.

وقد عرف سكان بلاد ما بين النهرين الإله «أدون» بإسم «تموز»، والذي يعني باللغة السومرية «الإبن الحق للمياه العميقة». أما المصريون فقد عرفوه بإسم «أوزيريس» Osiris أو «هاي تاو» أي إله الخير ومبدأ الحياة. واقتبس الرومان عبادة «أدون» عن طريق الإغريق، وحولوا إسم «ديونيسوس» المحرّف إلى «باخوس» Bacchus، الذي تلازمت شعائر عبادته مع معاقرة الخمر وممارسة الطقوس الأورجية Orgies[١٩].

لقد سادت عبادة هذا الإله في جميع المدن الفينيقية، بحيث كُرم تحت أسماء وألقاب عديدة. ففي مدينة صور عرف «أدون» بإسم «ملكارت» أي ملك المدينة. وعُرف «ملكارت» عند اليونان تحت إسم «هرقل». وبالإضافة إلى إسم «ملكارت» فقد عُرف «أدون» أيضاً بإسم «مولوخ» Moloch والذي يعني الملك[٢٠].

أما في مدينة صيدا فعُرف «أدون» بـ «أشمون» واعتبر إلهاً للشفاء، وعرفه اليونان بإسم «إسكلابيوس» Esculape، وكان رمزه حيتين ملتفتين حول عصا. كما عُرف البعل «أدون» بإسم الإله «رشف» (أي النور)، فكان له علاقة مباشرة بالشمس التي تميت وتحيي الزرع، والتي ترمز إلى الموت والخصب في آن. وقد عَرف اليونان هذا الإله بإسم «أبولو» Apollo[٢١]. كما أن هناك عدداً من القرى اللبنانية التي ما زالت تحمل إسم هذا الإله مثل: «رشاف» أو «رشف» في الجنوب، و«قبر شمون» و«تل المعشوق» و«بعل شميه».... إلخ.

٤ ـ أسطورة البعل «أدون» و«عشتروت»

لقد كان من أبرز مظاهر العبادة الفينيقية التي تدور حول تأليه الخصب وعبادته، البكاء والنواح على موت «أدون» إله الخصب، والقيام بطقوس من شأنها أن تعين انتصاره على خصمه إله الموت. فإن فكرة موت إله الخضرة في الصيف وقيامته في الربيع، كانت تقترن بقوة الشمس وحرارتها وانتصارها على الشتاء وعواصفه الباردة. هذه الفكرة مثلها الكنعاني بأسطورة «أدون وعشتروت»، التي تركزت في أفقا عند منبع «نهر إبراهيم»[٢٢]. فما هي أحداث هذه الأسطورة، وكيف جسدها اللبنانيون طقوساً واحتفالات؟

كثيرون عالجوا أسطورة «أدون»، فكيفوا تفاصيلها كل بحسب مخيلته. وبالرغم من أن هذه الأسطورةهي لبنانية ـ فينيقية في أصولها ومضامينها، فلم يرق إلينا شيء من مصادرها الأصلية، وإنما ترجع معرفتنا بها إلى ما نقله شعراء اليونان وأدباؤهم، بالإضافة إلى العديد من المؤرخين والكتاب المسيحيين[٢٣].

أ ـ أسطورة ولادة «أدون»: كان يعيش في لبنان ملك أسمه «ثياس» Theias، تارة يدعوه بعضهم «فينكس» Phoenix، وتارة أخرى «أجنور» Agenor، فيما يقول بعضهم الآخر بأنه «كينيراس» Cyniras، الذي كان ملكاً على مدينتي «جبيل» و«بافوس» .Paphos كان لـ «كينيراس» إبنة رائعة الجمال تدعى «ميرها» Myrrha، وكانتالأخيرة تتباهى بجمالها معتبرة نفسها أجمل من إلهة الجمال «عشتروت». أثار

(١٩) فريزر، جايمس، ـ المرجع السابق، ص ١٢.
(٢٠) Cotterell, Arthur, - op.cit, p 35-36
(٢١) حتي، فيليب، ـ المرجع السابق،ص ١٦٥.
(٢٢) حتي، فيليب، ـ المرجع نفسه،ص ١٥٨.
(٢٣) خوري حرب، أنطوان، المرجع السابق،ص ١٩.

هذا الأمر غيرة «عشتروت»، ودفعها إلى استصدار حكم عليها من إله «القدر»، يقضي بأن يسيطر عليها حب جارف لوالدها. وبمساعدة مربيتها استطاعت «ميرها» أن تضاجع والدها دون أن يعرف هويتها، لأنها كانت تدخل عليه في الظلام، ونتيجة لذلك حملت الفتاة من والدها. وبدافع الفضول أراد الملك أن يعرف هوية الأميرة، فأضاء مصباحاً كان قد أخفاه بجانبه، وعندما اكتشف بأن الفتاة هي ابنته، اعتراه غضب شديد وهم لقتل «ميرها» التي هربت مستنجدة بالآلهة(٢٤).

أشفق «زوس» Zeus كبير الآلهة لدى الإغريق على «ميرها»، فحولها إلى شجرة عطرية تحمل إسم شجرة المر. كذلك تحولت الدموع المريرة إلى حبيبات بخور تعطي شجرة المر رائحة زكية. وبعدها اكتملت فترة الحمل، فانشقت قشرة شجرة المر، وخرج من أحشائها أجمل مخلوق عرفته الآلهة والبشر وهو «أدون».

هذه الأسطورة تبين لنا أن «أدون» هو ثمرة التزاوج بين الذكر «الأب» والأنثى «الأم» المتمثلة بالإبنة، وهي من ذات الأب، أي إن هذا التزاوج هو بين الكائن وذاته، وفي ذلك تأكيد على وحدة مصدر الخلق، أضف إلى ذلك المبدأ الوحدوي للحياة بمظهريها البشري والنباتي، بحيث أن «أدون» يولد من شجرة(٢٥).

تناول اليونان موضوع ولادة «أدون» في ميثولوجيتهم، فجاء في قصة «مولد الآلهة»:

أن «زوس» Zeus كبير الآلهة لدى الإغريق والمرادف لـ «إيل» الفينيقي، أعجبته «سيميليه» Semele إبنة قدموس مؤسس مدينة «طيبة» الشهير. تباهت «سيميليه» بعلاقتها الحميمة بالإله «زوس» أمام رفيقاتها، فطلبت منه أن يظهر لهن تأكيداً على تلك العلاقة. حاول «زوس» ثنيها عن رغبتها لكن محاولته باءت بالفشل فاستجاب لها. صعقت الأميرة ورفيقاتها عندما ظهر لهن «زوس» مصحوباً بالبرق والرعود والصواعق. ولما كانت «سيميليه» حاملاً من «زوس»، فقد أخرج هذا الأخير الجنين من أحشائها وخاطه داخل فخذه، حتى تكتمل فترة الحمل. وعند انقضاء الأشهر التسعة، انبثق طفل جميل من فخذ كبير الآلهة، فكان «أدون» السيد أو «ديونيسوس» بحسب التسمية الإغريقية(٢٦).

على الرغم من أن هذه الأسطورة إغريقية، فإنها تحمل مدلولات تؤكد أن «أدون» أو Dionysus هو لبناني الأصل، فإسم Dionysus يعني باليونانية «إله ـ نيسا»Dio-Nysus، ونيسا هي منطقة أفقا كما ذكر «ننوس» Nonnus و«هيسيثيوس» Hesychius، بالإضافة إلى «هوميروس» homeros الذي ذكر بأنها المنطقة التي ولد فيها «أدون» أو «ديونيسوس» Dionysus(٢٧).

ب ـ أدون وعشتروت: بعد ولادة «أدون» من «ميرها» Myrrha، المتقمصة شجرة المر، ورؤية «عشتروت» لهذا المخلوقالجميل الذي لم تر عيناها مثيلاً له، تتيمت به. ولما كان أدون لا يزال طفلاً، أخذته ربة الجمال وخبأته في

(٢٤) Zimmerman, J.E.,- Dictionary Of Classical Mythology, Harper And Row, Bantam Book, New York 1971, p63

(٢٥) خوري حرب، أنطوان، المرجع السابق، ص ٢٠.

(٢٦) Otto, Walter F.,- Dionysus, Myth And Cult, Translated By Robert B, Palmer, Indiana University Press, Bloomington 1965, p66-72.

(٢٧) Otto, Walter F,- op.cit, p61-63

صندوق، وضعته في عهدة أختها «برسيفوني» Persephone إلهة العالم السفلي والظلمات وزوجة إله الجحيم «هاديز» Hades.

ذات يوم، دفع الفضول «برسيفوني» Persephone إلى فتح الصندوق. وما إن رأت جمال الطفل حتى عشقته. ولما طلبت «عشتروت» استرجاعه رفضت شقيقتها إعادته إليها. فاحتكمت إلى «زوس» Zeus كبير الآلهة، الذي أمر بأن يبقى «أدون» مع «برسيفوني» في العالم السفلي أربعة أشهر من السنة، ومع «عشتروت» أربعة أشهر في العالم العلوي، ويكون طليقاً أربعة أشهر. لكن «أدون» وهب هذه الحصة من حريته لـ «عشتروت». ولا ريب في أن النزاع بين «عشتروت» و«برسيفوني» من أجل «أدون»، ليس إلا تعبيراً رمزياً عن احتجاب إله الخصب والحياة داخل جوف الأرض في فصل الشتاء، وعودته إلى النور ليعيش ربيعه وصيفه، كما الزرع الذي يموت في الأرض، ثم ينبت وينمو وينضج فيحصد. وهذه المرحلة من حياة «أدون»، هي مقدمة تنبىء بما سيحدث له في مرحلة لاحقة عندما يصبح شاباً يافعاً.

أمضى «أدون» شبابه يسرح ويمرح مع حبيبته «عشتروت»، التي هجرت السماء لتلتحق به. تنقل العاشقان بين السهول الخضراء ومروج الرياحين، على جنبات الجداول الرقراقة وبالقرب من الينابيع العذبة، وتسلقا الجبال العالية المطلة على الأودية العميقة حيث تجري الأنهار الفياضة، وتوغلا في الغابات الباسقة الأشجار والعبقة بأريج اللبان. ويتفق معظم الرواة على أن مسرح مغامرات العاشقين «أدون» و«عشتروت»، كان في بقعة جبلية تقع في أعالي بلاد جبيل، أي في منطقة أفقا والرويس،حيث ينتشي المرء بجمال الطبيعة وبسحرها، وتتملكه مشاعر عميقة من الرهبة والإجلال.

اضطربت الآلهة من تصرفات إلهة الجمال «عشتروت»، وغارت من تعلقها بالشاب «أدون». وكان أشد الآلهة غيرة، «آريس» Ares (المريخ Mars عند الرومان) إله الحرب والموت، (يقابله الإله «موت»عند الفينيقيين)، والذي كان عشيقاً سابقاً لـ «عشتروت»، فقرر القضاء على غريمه. وأوجست «عشتروت» شراً قد يلحق بـ «أدون»، فحاولت منعه من الخروج كعادته إلى الصيد. لكن «أدون» لم يستمع إلى توسلاتها، وقد قصد حمى «أيل» في منطقة أفقا[٢٨].

تقمص «آريس» شكل خنزير بري وهاجم «أدون»، فجرحه جرحاً بالغاً في جنبه، وطرحه أرضاً مدرجاً بالدم. سمعت «عشتروت» أنين «أدون» وزفراته، فأسرعت إليه وحملته إلى مغارة أفقا وغسلت جراحه. لكن «أدون» لفظ أنفاسه الأخيرة، وخرجت منه الحياة مع الدماء التي سالت من جرحه[٢٩].

وتعبيراً عن حزنها وفاجعتها بموت «أدون»، شقت «عشتروت» ثوبها عند صدرها وشدّت شعر رأسها وانبرت تلوم الأقدار قائلة: «لا، لن يخضع لكُن كل شيء، وسوف يبقى»أدون«ذكرى حزن خالد إلى الأبد. وسوف يُمثّل كل عام مشهد موتك، يُذكّر بما كان فيه من نواحي عليك، ولتنبثق زهرة من دمائك»[٣٠].

ولم تكد تمضي ساعة من الزمن، حتى

(٢٨) نمر، حنا، ـ أساطير إغريقية، منشورات دار الخواطر، بيروت، ص ٩١ ـ٩٢.
(٢٩) دونان، موريس، ـ بيبلوس، تاريخها، آثارها وأساطيرها، ترجمة نادي بيبلوس، بيروت ١٩٦٣، ص ٩٠.
(٣٠) أوفيد، ـ مسخ الكائنات (ميتامورفوس)، ترجمة ثروت عكاشة، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩١، ص ٢٣١.

انبثقت من بين الدماء زهرة حمراء، أطلق عليها إسم «شقائق النعمان». وكلمة شقائق تعني «الجروح» بينما كلمة نعمان تعني «الحبيب» والتي كانت تطلق وصفاً لـ «أدون»، وبالتالي «شقائق النعمان» هي «جروح الحبيب» أدون. وتجدر الإشارة إلى أن كلمة «نعمان» دخلت في اللغتين الفرنسية والإنجليزية عن طريق الإغريق وأصبحت تلفظ «Anemone»[٣١].

عندما يطل فصل الربيع، تكسو زهرة «أدون» سفوح جبال لبنان وسهوله، وكأنه إشارة إلى عودة الحياة إلى الطبيعة، بعد فترة من الإحتجاب والسبات العميق في أحشاء الأرض، وكأنما في ذلك تأكيد على التلازم الوجودي التكاملي بين مبدأي الموت والحياة.

وهناك ظاهرة طبيعية أخرى ترافق نمو زهرة «شقائق النعمان»، وهي اصطباغ نهر «أدون» وتلون مياهه باللون الأحمر القاني، ما جعل الأقدمين يعتقدون بأن هذه الظاهرة، هي نتيجة تخضب النهر بالدماء التي سالت من جرح الإله الشاب، فصارت هذه إيذاناً لهم ببدء «الإحتفالات الأدونية» إحياء لذكرى موت «أدون» وقيامته.

والجدير بالذكر هنا، أنه في فصل الربيع يبدأ الثلج بالذوبان عن جبال لبنان العالية، فتتضخم مياه الأنهار بما ينصب فيها من سيول السفوح، جارفة معها كميات كبيرة من الأتربة المحتوية على أوكسيد الحديد، ما يكسبها لوناً أحمر قانياً كالدم. وهذا ما جعل الأقدمين يعتقدون أن الصبغة القرمزية هي دم «أدون» الذي قتله الإله «موت» في أعالي بلاد جبيل[٣٢].

٥ ـ الطقوس الأدونية (الأدونيات)

الأدونيات هي الإحتفالات التي كانت تقام كل سنة في فصل الربيع، تخليداً لذكرى موت وقيامة الإله «أدون». والجدير بالذكر هنا تعبير «عشتروت» عن حزنها لموت حبيبها «أدون»، حيث قالت: «سوف يبقى»أدون«ذكرى حزن خالد إلى الأبد، وسوف يُمثّل كل عام مشهد موته...»[٣٣] وهكذا بات المتعبدون لـ «أدون» و«عشتروت»، يمثلون كل سنة مشهد موت إلههم المحبوب «أدون». ولأن أحداث أسطورة البعل «أدون» قد وقعت في بلاد جبيل، صار الجبيليون أشهر وأعرق من احتفل بالطقوس الأدونية. وكانت هذه الإحتفالات تقام على مرحلتين:

ـ المرحة الأولى وهي عيد الأفانيزم Aphanisme أي عيد موت «أدون»، حيث يوقت موته الموهوم مع بدء الربيع في جبال لبنان، عندما تذوب الثلوج وتحمل معها ذرات من التراب الأحمر، فتختلط هذه الذرات مع مياه «نهر أدون»، وكأنها بمثابة إعلان وتذكير بموت الإله «المعشوق» فيسارع الفينيقيون بتأبينه والنواح عليه. كان يتقدم الإحتفال كهنة يحملون تابوتاً وضعت فيه جثة رمزية للإله «أدون»، وتكون صفراء اللون يتدفق منها الدم. وتسير إلى جانب الكهنة والكاهنات يحملن فراشاً منفرداً عليه تمثال «عشتروت» الباكية. ويسير خلف الكهنة والكاهنات فتيات حاملات سلالاً مملوءة كعكاً وزهوراً وطيباً. ثم جمع غفير من النساء المتشحات بملابس الحداد نائحات مولولات[٣٤]. وعند مغيب الشمس، يصل الموكب الجنائزي

(٣١) خوري حرب، أنطوان، المرجع السابق،ص ٣١.
(٣٢) فريزر، جايمس، ـ أدونيس، المرجع السابق، ص ١٤٦ ـ١٤٧.
(٣٣) أوفيد، ـ المرجع السابق، ص ٢٣١.
(٣٤) الماجدي، خزعل، ـ المعتقدات الكنعانية، المرجع السابق، ص ٢٦٩.

إلى أفقا لدفن الإله. وتطرح تماثيله في النهر على أمل أن يحيا بالمياه ويحي الطبيعة من جديد، أو تطرح في البحر ليكون له ضريحاً كما الشمس شبهه، التي تغيب في البحر كذلك.

كان الناس يصنعون ما يسمى بـ «بجنائن أدونيس»، التي هي عبارة عن سلال تملأ بالتراب ويرش عليها الماء وتزرع فيها بذور القمح والشعير والزهور، وتقوم النساء بشكل خاص بالعناية بها قبل بدء احتفالات العيد بثمانية أيام، ووضعها تحت أشعة الشمس فتنمو بسرعة. بعدها تذبل لضعف جذورها، وتحمل مع موكب ضريح «أدون» في نهاية أيامها الثمانية وبدء اليوم الأول لاحتفالات «الأفانيزم» Aphanisme، ثم تقذف في الماء مع ضريحه[٣٥].

وكانت طقوس الحزن هذه تستمر سبعة أيام في بلاد جبيل، أو ثلاثة أيام كما عند المصريين الذين يشبّهون إلههم «أوزيريس» بالإله «أدون»، تعم خلالها مظاهر الحداد، فتقوم الباكيات برثي «أدون» ومحاسن صفاته، والنادبات الناحبات يقرعن صدورهن وينشدن أناشيد الحزن والأسى ويصعدن الأنات والزفرات على وقع الدف ونغمات الناي ويهتفن: «مات أدون الجميل، حقاً مات»[٣٦].

ـ المرحة الثانية: وهي «عيد الهفريس» Hevrese أي عيد قيامة وبعث «أدون»، حيث يتم اكتشاف جثته على ساحل النهر أو البحر، (وفيه يستلم أهل جبيل سل البردي، الذي كانت نساء الإسكندرية يلقين به في البحر رمزاً لامتنان «إيزيس» لـ «أدون»، بعد أن عثرت على جثة «أوزيريس» في جبيل، حيث كان «أدون» يُعبد ويعيش). في ذلك إشارة لتطابق شخصيتي «أدون» و «أوزيريس»، و«إيزيس» مع «عشتروت»، كما يحتوي سل البردي على رأس مصنع من الورق السميك، ومعه رسالة لـ «فينيقيا» بنهاية الحداد، وقيامة «أدون» من الموت. يبدأ الإحتفال بإطلاق أصوات الفرح والإبتهاج وهتافات النشوة والإنشراح، التي تؤدي إلى تناول الخمور والرقص والغناء وممارسة الجنس الجماعي العلني Orgies، معلنة انتصار الحياة على الموت، وصعود هتاف:» لقد قام أدون، حقاً قام»[٣٧].

وكان يرافق الإحتفالات الأدونية طقوس لها مدلول رمزي، منها أن المؤمنين كانوا يحلقون رؤوسهم حزناً على فراق الإله، وكان على النساء اللواتي لا يردن أن يضحين بشعرهن الجميل، أن يستسلمن للغرباء لمرة واحدة في يوم معين من أيام العيد، وأن يقدمن لـ«عشتروت» ما يحصلن عليه من نقود، بدل» بغائهن المقدس»[٣٨].

هكذا نرى بأن الطقوس الأدونية، جاءت تعبيراً حسياً عن اندماج الإنسان بالطبيعة، ومشاركتهافي عملية العطاء، فالإله الشاب «أدون» يمثل «روح النبات والحبوب»، لذلك أضحت طقوس موته وقيامته تعبيراً رمزياً عن موت النبات وانبثاقه. فحين يحتجب في الأرض يتوقف الخصب، وحين يبعث حياً يعود الإخضرار وتزهر الطبيعة. وأصدق برهان على ذلك «جنائن أدون»، التي كانت تمثل الإله الشاب الذي يموت وهو في غرّة شبابه، مثلما

(٣٥) الماجدي، خزعل، ـ المرجع نفسه، ص ٢٧٠.
(٣٦) خوري حرب، أنطوان، ـ الديانة اللبنانية القديمة، المرجع السابق، ص ٣٤.
(٣٧) الماجدي، خزعل، ـ المرجع السابق، ص ٢٧٠.
(٣٨) خوري حرب، أنطوان، المرجع السابقص ٣٥.

كان «أدون» يمثل أيضاً الدورة الزراعية، من نمو واخضرار إلى يباس وذبولوموت. ويمكن اعتبار «جنائن أدون»، بمثابة رُقى سحرية يُرجى منها نمو الزرع، ولا سيما الحبوب وضمان خصب الأرض والناس معاً[٣٩].

ولما كان للمياه دور أساسي في عملية الإخصاب والنمو، فقد رافقت الأعياد الأدونية التي كانت تقام في منطقة أفقا، طقوس تقضي بنقل الماء بآنية في تطواف احتفالي، ورميها في بحيرة مقدسة تتدفق فيها مياه المغارة بالقرب من «معبد عشتروت»، وفي تلك الطقوس إشارة إلى إعادة إرواء الأرض لإخصابها بعد فترة القحط. ومن الملاحظ أن المعابد القديمة قد بنيت بالقرب من منابع المياه أو فوقها، مثل معابد: أفقا وحوشبا وجبيل وتمنين الفوقا واليمونة وبعلبك... إلخ.

ومن الطقوس المرتبطة بعبادة «أدون»، الإستحمام في مياه البحر أو الأنهر أو الإغتسال بماء الندى، بغية التطهير أو الشفاء من بعض العاهات الجسدية، الجلدية منها بنوع خاص، وأمراض العقم. وقد انتقلت هذه الطقوس إلى المسيحية، وارتبطت بالقديس «جاورجيوس» الملقب أيضاً بـ «الخضر»، الذي تُعرف مقاماته البحرية بالباطيات (بيروت، طبرجا، الصفرا...)، تقصدها الناس ليبرأن من عقمهن[٤٠].

٦ ـ أهم المواقع الأثرية والطبيعية المتعلقة بالطقوس الأدونية

أ ـ أفقا:لعل أبرز شاهد على نوعية العلاقة التي تصورها الفينيقيون القدامى، والتي تربط بين إلههم الأكبر «إيل» خالق الخلائق، وإلههم الشاب «أدون» رمز الخصب والحياة، والإلهة الأم الكلية «عشتروت» هو ما تلمسه في أفقا، التي تقع ضمن قضاء جبيل على بعد ٧١ كلم من بيروت وارتفاع ١١٥٠م عن سطح البحر. لقد ورد ذكر أفقا في المصادر اللاتينية Aphca، وهو مشتق من الجذر nfالآرامي أي بمعنى المتدفق، وبالتالي يكون الإسم بمعنى النبع المتدفق[٤١].

هذه التسمية تنطبق على المكان، ففي هذه البلدة مغارة صخرية كبيرة تشكل النبع الأساسي لنهر «أدون» (إبراهيم)، الذي يعتبر من أغزر أنهار لبنان. وقد اعتبر الفينيقيون أن مغارة أفقا مقرٌّ للإله الأكبر «إيل» وعليه فإن «أدون» المتمثل بالمياه الدافئة، ينبثق من جوف مغارة «إيل» «الإبن» ـ عطية الأب وفيض كيانه ووجوده.

١ ـ مغارة أفقا:

تقع مغارة أفقا في المنقلب الغربي لجبل المنيطرة، تكاد فوهتها تكون مربعة الزوايا تكسيرها ستون متراً في كل جهة، يتفجر من أعماقها ماء زلال صافٍ كالبلور، يتدفق بقوة ليتكسر على الصخور الكبيرة، ويولد سيلاً عريضاً يتساقط شلالات صغيرة، إصطلح المؤرخون على تسميتها بـ «الجنادل»، حتى الجسر العادي الذي يمر عليه الطريق. وتحت الجسر ثلاثة شلالات رائعة تكّون، على مهيدات الصخور، أحواضاً منظمة[٤٢]، وبحيرة صغيرة يبلغ عمقها حوالي ٥٠ قدماً، فوق هذه الأخيرة

(٣٩) فريزر، جايمس، ـ المرجع السابق، ص ١٥٧.
(٤٠) خوري حرب، المرجع السابق، ص ٣٦.
(٤١) فريحة، أنيس، ـ معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية، الطبعة الرابعة، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٩٦، حرف الألف، ص٥.
(٤٢) لورتيه، لويس، ـ مشاهدات في لبنان، ترجمة كرم بستاني، دار نظير عبّود، بيروت ١٩٩٦، ص ٢٠٩.

جسر يقودنا إلى آثار هيكل قديم هو «هيكل عشتروت»[٤٣]، بُني فوق ينبوع يتدفق من جوف دهليز مقبب عند قاعدة الهيكل. وتلتقي مياه هذا الينبوع بالمياه المتدفقة من مغارة «إيل» في البحيرة الصغيرة التي ذكرناها.

كان المتعبدون يقفون عند هذه البحيرة الصغيرة، فيرمون في مياهها قطعاً من الذهب والفضة، أو أنسجة حريرية. فإذا قبلت الآلهة نذورهم ابتلعتها المياه حالاً، حتى لو كان وزنها الخفيف يدفعها إلى أن تطفو فوق سطح المياه، في حين أن النذور الثقيلة، فضة كانت أو ذهباً، أو أشياء أخرى، تبقى طافية إذا رفضتها الآلهة[٤٤].

٢ ـ معبد أفقا:

يعتبر معبد «أفقا»، الذي بناه «كنيراس» Cyniras كما يذكر بعض المؤرخين مثل: «جايمس فريزر» و» لويس لورتيه»، من أشهر معابد الجبل اللبناني، حيث كان الفينيقيون يحجون سنوياً إلى أفقا عبر وادي «أدون» للإحتفال بموت هذا الإله وقيامته. وقد أخذت «الأدونيات» شهرة واسعة في ذلك الزمن، مع ما كان يرافقها من طقوس البغاء الذاتي في سبيل ترضية إلهية. هذه الطقوس كان يعتبرها أتباع الدين الجديد، المسيحيون، نوعاً من الفجور والرذيلة، وهي كانت بعيدة كل البعد عن الأخلاقية المسيحية، وعن روحانية الإنجيل.ويذكر المؤرخ الكنسي «أوسابيوس القيصري»، في معرض كلامه على معبد أفقا وعلى الطقوس التي كانت تمارس فيه، ما يأتي:

«هذا الهيكل لم يكن في وسط مدينة، بل كان في غابة نائية عن العمران بعيدة عن الطرق التي يسلكها الناس، في مكان اسمه أفقا على قمة من قمم لبنان. وكان مكرساً لعبادة شيطان رجيم يُعرفبالزهرة، كان هذا الهيكل بؤرة فساد وشر يقيم فيه أشرار نذروا أنفسهم للدعارة والبغاء».

ويذكر المؤرخ «سوزوميس» Sozomenus (القرن الخامس ميلادي) أفقا في مؤلفة «التاريخ الكنسي «ثم يتكلم عن ظاهرة غريبة كانت تحدث أثناء الإحتفالات، التي كانت تجري سنوياً في أفقا، فيقول: «أثناء اجتماع الناس الذي يجري في يوم معين (من كل سنة)، كانت نار (الإحتفال) تسقط كنجم من فوق منحدر جبل لبنان، في النهر المجاور. وكان (الأهلون) يسمونها نار أورانيا، وهو إسم أفروديت».

ويرجح أن نار «أورانيا» كان يقودها الحجاج الذين يؤمون أفقا سنوياً، ويضرمونها في كتل من الحطب، ويدفعونها من أعلى الجبل المشرف على أفقا، فتتدحرج فوق المنحدر وتسقط في النهر، وتبدو كأنها نار تسقط من السماء. ولا تزال عادة إشعال النار فوق جبال لبنان مألوفة في زماننا الحاضر[٤٥].

بعد اعتلاء «قسطنطين» عرش روما، واعتناقه الدين المسيحي سنة ٣٢٥م، أمر بهدم معبد «عشتروت» في أفقا. ولكن بعد وفاة قسطنطين حاول سدنة الهيكل إعادة بنائه، وقد تحقق ما كانوا يسعون إليه في عهد الإمبراطور «جوليان» المعروف بالجاحد (٣٦١ ـ ٣٦٤م)، حيث أمر بإعادة بناء الهيكل من جديد. ومن

(٤٣) ويلسون، سير شارلز، ـ لوحات من القرن التاسع عشر، ترجمة د. محمد شيا، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ١٩٩٥، ص ٣١.

(٤٤) لورتيه، لويس، ـ المرجع السابق، ص ٢٠٩.

(٤٥) خوري حرب، أنطوان، ـ لبنان جدلية الإسم والكيان عبر ٤٠٠٠ سنة، منشورات مؤسسة التراث اللبناني، بيروت ٢٠٠٠، ص ١٢٠.

المرجح أن يكون الهيكل قد هُجر في عهد الإمبراطور «تيودوسيوس» الذي أبطل عبادة الأوثان وجعل المسيحية دين الدولة الرسمي سنة ٣٨٠م. وكان خراب الهيكل في المرة الثانية بسبب زلزال وقع في القرن السادس الميلادي، وما يؤيّد ذلك أن بعض الجدران سقطت دفعة واحدة مع بقائها على نظامها الأول(٤٦).

لم يبق من المعبد اليوم سوى أساساته، أما حجارة جدرانه فهي مطروحة أرضاً ومبعثرة. في داخل المعبد كذلك عمودان ضخمان، من الحجر الأسواني، مطروحان على الأرض، وفي الجدار الشرقي كوة تنتهي إلى قبو، كانت تتفجر فيه عين الماء التي بُني المعبد فوقها(٤٧).

ولا تزال رواسب من العبادة القديمة عالقة في عقائد وتقاليد اللبنانيين. فبالرغم من تبدد الأساطير ودمار هيكل أفقا، فإن سكان المنطقة لا يزالون يكرمون «سيدة أفقا» أو «سيدة زهرة». هذان الإسمان ما هما إلا صفات للعذراء، حيث يُكرّم أهالي البلدة صورة لها، يضعونها داخل حنية مُقوسة فوق الدهليز المقبب الذي يشكل قسماً من قاعدة المعبد. ومن عاداتهم أن يضيئوا الشموع داخل الحنية، ويعلقوا على أغصان شجرة نبتت في جدار المعبد الشرقي، خرقاً من ثيابهم الداخلية بمثابة نذور، لكي يرزقوا بالبنين. والجدير بالذكر أن عادة تعليق النذور على أغصان الأشجار بالقرب من المقامات الدينية، هي من العادات الرائجة في مختلف أنحاء لبنان وعند مختلف الطوائف. والشجرة هي رمز للخصب فمنها ولد «أدون» بعد أن حُوّلت «ميرها» Murrha إلى شجرة المر، لذا كرّم اللبنانيون الشجرة التي اعتبروها دلالة من دلالات الحياة.

بالإضافة إلى أهمية المعبد والمغارة، لابد من الإشارة إلى أهمية موقع أفقا فوق وادي «أدون» فقد كتب «جايمس فريزر» يصف المكان:

«كان «كنيراس» Cyniras ملك جبيل، قد أسس معبداً لـ «عشتروت»، في مكان فوق جبل لبنان يبعد مسيرة يوم عن جبيل، والمكان على الأرجح هو«أفقا» عند منبع نهر أدونيس في نصف الطريق بين جبيل وبعلبك... يتدفق النهر من المغارة، في أسفل قسمها الأدنى مدرج جبار... يندفع في مجراه بسلسلة من الشلالات حتى أعماق الوادي الرهيب.وكلما ينحدر المجرى أعمق تكثر الأعشاب وتتكاثف ناشرة ستاراً أخضر فوق السيل الهادر... هناك شيء عذب يكاد يسكر في صفاء هذه المياه بما فيها من عذوبة، وبما في هواء الجبل من نقاء، وبما في النباتات من اخضرار ومياه...»

ويستطرد فريزر مستشهداً بـ «أدون وعشتروت»، فيقول:

«ففي هذا المكان، التقى «أدون» بـ «أفروديت» (عشتروت) لأول وآخر مرة... وأنى للخيال أن يبتدع مشهداً أجمل من هذا لقصة حب فاجع وموت أليم... ويبدو أن الوادي جميعه كان في القديم وقفاً لأدونيس، وهو لا يزال لحدّ الآن يحمل ذكراه»(٤٨).

بالإضافة إلى وصف «فريزر» لمنطقة أفقا، لا بد من أن نذكر ما للطبيعة من أثر عليها، ففي فصل الشتاء تكلل الثلوج المنطقة بكاملها،

(٤٦) لامنس، الأب هنري، ـ تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من آثار، دار نظير عبّود، بيروت ١٩٩٦، ص ٦٦.
(٤٧) لورتيه، لويس، ـ المرجع السابق، ص ٢١١.
(٤٨) فريزر، جايمس، ـ أدونيس، المرجع السابق، ص ٢٩ ـ ٣١.

مما يؤثر إيجاباً على منابع «نهر أدون»، حيث تتفجر بغزارة في فصل الربيع. أما في آخر فصل الصيف وبداية فصل الخريف، فتتأثر هذه المنابع بحرارة الطقس، ما يؤدي إلى قلة غزارتها. وبالتالي يشكل هذا العامل دليلاً على موت الطبيعة وإعادة إحيائها من جديد.

إلى الجنوب من بلدة أفقا تقع بلدة «لاسا»، والتي تعتبر صلة وصل بين أفقا ومناطق الوادي الواقعة على الضفة الجنوبية منه مثل: الغينة ويحشوش. ومن المنطق أن يكون لهذه البلدة علاقة «بالأدونيات»، فما من طريق يصل الغينة بأفقا من الجهة الجنوبية إلا عبر لاسا. هذا بالإضافة إلى أن تسمية لاسا مركبة من«ال ـ آسي» ''EL-asa»، بحيث إن «il» هو إيل أي «الإله» و«asa» يعني في السريانية «الطبيب الشافي»[٤٩]. وبالتالي يكون معنى الإسم «الإله الشافي» أو «إيل الشافي». وهذا منطقي جداً لأن «لاسا» تقع إلى جانب أفقا، مركز «إيل» كبير الآلهة.

ب ـ العاقورة

تقع بلدة العاقورة بالقرب من أفقا، على بعد ٦٨ كلم من بيروت وارتفاع ١٣٥٠م عن سطح البحر[٥٠]. أما أصل تسميتها فهو مشتق من جذر سامي مشترك «عقر» أي الجرد، فيكون المعنى «الجرداء». وقد يكون محرفاً من -en qura أي «العين البارزة»[٥١] إشارة إلى كثرة الينابيع الموجودة في البلدة، حيث يوجد أكثر من ٧٢ نبعاً.

١ ـ مغارة الرويس:

تتميز العاقورة بوجود مغارة «الرويس» بقربها، والتي تشكل المنبع الرئيسي الثاني لنهر «أدون». ويرجح الباحثون بأنها سميت «مغارة الرويس» أو «مغارة آريس» Ares، نسبة لإله الموت الذي قتل «أدون»، والذي يلفظ باليونانية «ارويس» كما نلفظ نحن إسم مغارة الرويس.

فوق واجهة المغارة جسر حجري ضخم صنعته الطبيعة. وقد نشأ هذا الأخير من سقوط صخر عظيم، كان في وقت ما سقفاً لمدخل المغارة الصخرية، ثم سقط ليغطي الآن قناة نبع الرويس التي تنبع من داخل المغارة. خلف هذا الجسر، يوجد درج صخري يوصل إلى مدخل المغارة، التي يتراوح علو سقفها ما بين عشرة أقدام وعشرين قدماً.

إنطلاقاً من فسحة المدخل الرئيسي، وبعد مسافة ٤٠٠ قدم تنشطر الغارة إلى فرعين:

الأول إلى اليمين موحل وصعب، والآخر إلى اليسار تحيط به من الجانبين وتعلوه أقواس وزخرفات وأشكال كأنما نحت من شمع. لذا، من الطبيعي أن يؤخذ المرء بروعة ما صنعته الطبيعة داخل المغارة من تشكيلات صخرية، وزخارف جدرانية وتكوينات رسوبية في الأرض والسقوف، التي صبغتها المياه الراشحة من كل مكان بألوان مختلفة. ويطغى اللون الأحمر على هذه التشكيلات، لأن التربة التي تغطي تلك البقعة من الجبل تزخر بأكسيد الحديد. بالإضافة إلى هذه الزخارف والتشكيلات الطبيعية داخل المغارة، توجد ساقية ماء تجري صافية كالبلور إلى الحد الذي يجعلك تعتقد أنها جافة [٥٢].

(٤٩) فريحة، أنيس، ـ المرجع السابق، حرف اللام، ص ١٥٧.
(٥٠) مرهج، عفيف، ـ أعرف لبنان، الجزء السابع، الطبعة الثالثة، مطبعة أنطوان جلخ، بيروت ١٩٧٢. ص ٣٤.
(٥١) فريحة، أنيس، ـ معجم أسماء المدن...، المرجع السابق، حرف العين، ص ١١١.
(٥٢) ويلسون، سير شارلز، ـ لوحات من القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص ٢٧ ـ ٢٨.

نكمل طريقنا بين جنبات هذا المعرض الطبيعي الرائع لحوالي ٤٠٠ قدم أخرى، حتى نصل إلى قاعة مقفلة، حيطانها عمودية حادة، ولا يمكن النفاذ منها إلا بتسلق أحد جدرانها المفضية إلى مغارة أعلى واسعة(٥٣).

ولما كان الإنسان القديم أقرب إلى الطبيعة من إنساننا المعاصر، فقد استوحى من المغارة مفاهيمه للحياة ومشاعر تدينه وعقائده الماورائية، كما تأثر بجمال الأشكال والألوان وأطلق لمخيلته العنان في تفسير بعض الظواهر الطبيعية، التي عجز عقله عن إدراك أسبابها. ومن هذه الظواهر، تلون جدران مغارة الرويس باللون الأحمر، واصطباغ النهر الذي يخرج من المغارة بهذا اللون، للسبب الذي سبق ذكره، فكان أن اعتبر الإله «آريس» Ares إلهاً سفاحاً مصبوغاً بالدماء، وهذا الوصف يتوافق وما ورد في إلياذة هوميروس حول هذا الإله.(٥٤) والجدير بالذكر أن مياه «الرويس» تغور في الأرض قبل فتحة الخروج من المغارة، لتعود فتنبثق على مسافة قريبة، فيبدو مدخلها الصخري جافاً كأنما الحياة قد هجرته.

اعتبر القدماء أن اصطباغ مياه نهر «أدون» باللون الأحمر كل سنة، إنما يحدث رمزاً للدماء. وأن النهر الصغير الذي يخرج من مغارة الرويس، يلتقي بنهر أفقا ويندمج فيه، فيصب فيه التراب الأحمر الذي يحمله معه، ويكون كطعنة توجه إليه فتصبغه بالدماء الحمراء، ولعل هذه الملاحظة هي التي أوحت بالأسطورة والعلاقة الغرامية الدامية بين «آريس» الدموي وأدون وعشتروت(٥٥).

وأن أكثر ما يدهش في هذا الواقع، معاصر العنب المحفورة في الصخر أمام المدخل الصخري الداخلي للمغارة، ولا تزال زراعة الكرمة رائجة في المنطقة حتى اليوم. وتجدر الإشارة إلى أن احتساء الخمرة هو من الطقوس الرئيسية التي كانت ترافق الأدونيات، لذا تنتشر معاصر العنب بكثرة في هذه المناطق التي كانت تشكل مسرحاً للطقوس الأدونية.

ولمعرفة مدى أهمية مغارة «الرويس» في التاريخ القديم، يجب أن نضطلع بما ذكره المؤرخون بعامة، و«ديودور» الصقلي بخاصة عن المنطقة، والتي يطلق عليها إسم «منطقة نيسا» حيث تربى «ديونيسوس». فيصف نيسا كما يلي:

«نيسا البعيدة، وهي في قلب جزيرة يحيط بها نهر شديد الإنحدار. ويمكن الدخول إليها من مضيق يدعى «الأبواب النيسية»، وهذه الجزيرة عبارة عن أراضٍ خصبة مسقية بينابيع غزيرة، فيها جميع أنواع الثمار، وخمرها كثير... ومدخل هذه الجزيرة هو بشكله وادٍ تضلله أشجار وارفة،... وحين يتقدم الإنسان يجد كهفاً بجمال فذ غير عادي. وتعلو هذا الكهف صخرة بعلو كبير، ولونها يلمع كثيراً وكأنه أرجواني بحري...». (٦٨: ٣)

وهكذا نرى بأن المغارة التي تنطبق عليها أوصاف «ديودور»، هي مغارة «الرويس»، والجزيرة التي ورد ذكرها هي أصح تشبيه للحواجز الصخرية الضخمة التي تعزل المنطقة، وتترك لها مدخلاً واحداً تقريباً هو في قلب وادي «أدون» العميق. ولا بد من ذكر أن النبعين الغزيرين المندفعين من مغارة الرويس ومغارة أفقا، يجعلان المكان محوطاً بالمياه وكأنه

(٥٣) ويلسون، سير شارلز، ـ المرجع نفسه، ص ٢٩.
(٥٤) خوري حرب، أنطوان، ـ الديانة اللبنانية القديمة، المرجع السابق، ص ٣٢.
(٥٥) الحوراني، يوسف، ـ لبنان في قيم تاريخه، المرجع السابق، ص ٦٩ ـ ٧٠.

جزيرة. وإلا فإن تطبيق كلمة جزيرة لا يمكن أن يكون في البحر ما دام «دودور» يذكر إحاطتها بنهرين لا بالبحر(٥٦).

٢ ـ الطريق الصخري :

تتميز العاقورة أيضاً بوجود طريق محفور في الصخر يصل بينها وبين «اليمونة». يتراوح عرض هذا الطريق من يارد إلى إثنين، بعمق ثمانية أقدام، وهو محفور في الصخر الصلب. في بداية الطريق، يوجد ست عشرة درجة منحوتة في الصخر. نتيجة لذلك يشكل الصخر المحفور سوراً طبيعياً يحيط الطريق من جانبيه. ومن ثم يضيق الطريق الصخري شيئاً فشيئاً، إلى أن يجبر سالكه على تسلق قمة الجبل لينحدر بعدها إلى بلدة اليمونة، التي تقع في المنقلب الشرقي من جبل المنيطرة، مقابل بلدة العاقورة التي تقع في الجهة الغربية منه. ويستغرق هذا الطريق حوالي الخمس ساعات سيراً وتسلقاً من العاقورة إلى اليمونة(٥٧).

لهذا الطريق أهمية كبيرة في نفوس القدماء، الذين كانوا يمارسون الطقوس الأدونية. حيث إنهم كانوا يمرون فيه سيراً على الأقدام، لكي يصلوا إلى بحيرة اليمونة التي تقع على علو حوالي ١٥٤٠م، وتعني «اليم الصغير» أي «البحيرة». وقد عُرفت هذه البحيرة عند بعض السياح الأجانب بـ «بحيرة ليمون» Laimoun، ويغذيها نبع «الأربعين» الذي يتفجر من سفح جبل المنيطرة. ويعتقد أهالي المنطقة أن مياه البحيرة تنفذ في قلب الجبل، وتجري من جهة الغرب، لتخرج من مغارة أفقا وتكوّن نهر أدون.

وفي ذلك ما يجعل بين أيدينا من تفسير منطقي يسمح للربط بين «اليمونة» و«أفقا» و«الرويس»، من حيث العقيدة والطقوس التي كانت تمارس قديماً، والتي لها صلة بـ «أدون» وبـ «عشتروت»(٥٨).

ج ـ يانوح :

تقع بلدة يانوح التي تعتبر آخر محطات الطقوس الأدونية قبل الوصول إلى أفقا، على بعد ٩٤ كلم من بيروت وارتفاع ١١٠٠م عن سطح البحر(٥٩). ولتسمية يانوح علاقة وثيقة بالطقوس الأدونية وبموت الإله «أدون». فلفظة يانوح تعني في اللغات السامية «الراحة والهدوء»(٦٠). إشارة في ذلك إلى استراحة الموت وسكينة القبور.

١ ـ معبد يانوح :

شيد الفينيقيون في هذه البلدة معبداً لـ «أدون»، تحول في العهد البيزنطي إلى كنيسة على إسم «القديس جاورجيوس»، لذا يُعرف المعبد اليوم بإسم «مار جرجس الأزرق»، أما النعت «أزرق» فهو نسبة للون حجارة المعبد التي تميل إلى اللون الأزرق، بالإضافة إلى كونه مرادفاً إصطلاحياً لـ «أخضر» عند سكان المناطق الجبلية، حيث يصفون الثمار غير الناضجة بالزرقاء، والمراد بذلك أنها خضراء. وبما أن «جورجيوس» Georges في اللغة اليونانية يعني الفلاح، أي مخصب الأرض، تطابق إسم «أدون» مع إسم «جاورجيوس»، وحُوّلت معظم المعابد المكرسة لعبادة «أدون»

(٥٦) الحوراني، يوسف، ـ المرجع نفسه، ص ٦٧.
(٥٧) Condé, Bruce,- See Lebanon, 2ndEdition, Harb Bijjani Press, Beirut 1960, p.133-134.
(٥٨) لامنس، الأب هنري، ـ تسريح الأبصار...، المرجع السابق، ص ٦١ ـ ٦٣.
(٥٩) مرهج، عفيف، ـ أعرف لبنان، الجزء التاسع، المرجع السابق، ص ٦٠٧.
(٦٠) فريحة، أنيس، ـ معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية، المرجع السابق، حرف الياء، ص ١٨٨.

في العهود المسيحية، إلى كنائس تحمل إسم القديس جاورجيوس «مار جرجس». ومار جورجيوس، هو نفسه «الخضر» في التراث الشعبي الإسلامي، وسمي «الخضر» لأنه جلس على أرض بيضاء فاهتزت خضراء.[٦١] نستنتج من ذلك أن الخضر هو رمز للخصب والإنبات والتجدد، فيُجمع إسمه مع إسم مار جاورجيوس ليصبح «مار جرجس الخضر»[٦٢].

تحوّل معبد يانوح إلى كنيسة في العهد البيزنطي، ومن ثم إلى مركز البطريركية المارونية بعد انتقالها من وادي العاصي في سوريا إلى لبنان سنة ٩٣٨م.[٦٣] أهم ما يميز هذا المعبد الزخارف والنقوش التي تشبه تلك الموجودة في معابد بعلبك[٦٤].

لمعبد «أدون» هذا، ثلاثة أبواب، المدخل الرئيسي من جهة الشرق، وبابان من جهتي الشمال والجنوب، يقع هذان البابان على نفس المحور ويتميزان بالنقوش الموجودة فوق عتبتهما، ومنها الزهرة المتفتحة التي تمثل الحياة المتجددة وبالتالي ترمز إلى «أدون».

أما واجهة المعبد، فيميزها الإفريز الذي يحتوي على زخارف ونقوش عديدة ترمز إلى الحياة والموت.

فإذا دققنا بقطعة من قطع حجارة الإفريز المرمية إلى جانب المدخل، نرى صفاً من النقوش البيضاوية (Oves) المنحوتة واحدة تلو الأخرى، وترمز هذه النقوش إلى الحياة، فوق صف النقوش البيضاوية هذا، صف من الأزهار المتفتحة، ومن ثم صف من أوراق الاكنثا.

وعلى غرار المعابد القديمة، فقد بني هذا المعبد على قاعدة مستطيلة Podium باتجاه شرق- غرب،يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ٣١،١٤م وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٩٥،٦م. ويتخلل جانبي الحائط الشمالي والجنوبي بابان يقعان على المحور نفسه. ويتميز أعلى الحائط الشرقي للمعبد بوجود حنية كبيرة فوق قدس الأقدس Adyton، الذي كان الوصول إليه عبر سبع درجات لا أثر لها اليوم.[٦٥] هذه الحنية تتميز بالزخرفة الموجودة في أعلاها، والتي تعطي شكل الصدفة التي ترمز إلى «عشتروت»، هذا بالإضافة إلى الإطار الذي يحيط بالحنية، والذي يمثل شكل عمودين متلاصقين.

يتقدم واجهة ومدخل المعبد أربعة أعمدة، من الطراز الكورنثي، ولكن عندما حوّل إلى كنيسة تم تحويل واجهة المعبد إلى حنية، حيث كان اتجاه الكنيسة غرب - شرق أي عكس اتجاه المعبد. ومع مجيء الصليبيين تم إغلاق بعض نوافذ الكنيسة، كما قاموا بتحصين السور المحيط بها[٦٦].

من خلال هذا المعبد، يتضح لنا كم كان لـ «يانوح» من أهمية دينية خلال العصور الغابرة. فهي قبل أن تتحول إلى مركز البطريركية المارونية عام ٩٣٨م، كانت يانوح محطة من أهم محطات الطقوس الأدونية. خصوصاً وأن موقع المعبد قريب من منابع نهر «أدون» (أفقاً

(٦١) الجزائري، السيد نعمة الله، ـ النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، منشورات الشريف الرضي، قم، إيران ص٣٣٩.
(٦٢) صدقة، جان م.، ـ القديس جرجس الشهيد أو الخضر عليه السلام، منشورات أديفا، بيروت ٢٠٠٣، ص ٢٦.
(٦٣) خوري حرب، أنطوان، ـ الديانة اللبنانية القديمة، المرجع السابق، ص ٣٠.
(٦٤) ondé, Bruce,- See Lebanon. Op.cit, p.127
(٦٥) Krencker, Daniel,- Romiche Templ In Syrien. (Text), walter de Gruyter & Co. Brelin Und Leipzig 1938. p.36-38.
(٦٦) Condé, Bruce,- op.cit, p.128.

والرويس)، بالإضافة إلى قربه من الطريق الذي يصل العاقورة باليمونة، والذي كان يشكل مركزاً مهماً للذين يمارسون الطقوس الأدونية، حيث كانوا يحجون إلى أفقا فالعاقورة فاليمونة ليغتسلوا ببركتها المقدسة، والمراد بذلك تطهير أنفسهم.(٦٧) والجدير بالذكر أن خصائص اليمونة الدينية والطبيعية تشبه إلى حد كبير أفقا، والمقصود بذلك النبع والمعبد والبركة المقدسة.

د ـ قرطبا :

تقع قرطبا، على الضفة الشمالية لنهر إبراهيم، ضمن قضاء جبيل على ارتفاع ١٢٥٠م من سطح البحر و٥٤ كلم من بيروت. إسم هذه البلدة مشتق من اللغة السريانية «قرطوبو» أي «القر الطيب»، ويعني ذلك المناخ الطيب أو البرد الطيب(٦٨)، إشارة إلى موقع قرطبا ولطافة مناخها في الصيف وبردها القارس في الشتاء. أما المؤرخ أنيس فريحة، فيرى بأن إسم قرطبا مركب من «قرية آبا»، فيكون المعنى «قرية الأب»(٦٩).

يُعرّف المؤرخ الفرنسي أرنست رينان قرطبا بأنها منطقة غنية بالآثار، بعضهما بارز وبعضها الآخر لم يبق منه سوى كتابات ونقوش، ففي محلتي «رأس عقبة جنة» و«وادي بطراييش» كتابات ونقوش لاتينية محفورة بالصخر، أما في مرحلة «الدفران» نقش لرأس إنسان محفور بالصخر، يرجح رينان بأن هذه الكتابات والنقوش تعود إلى عهد الإمبراطور الروماني «أدريان»، والتي تميز الأحراش المختصة بالإمبراطورية الرومانية، التي كانت تقطع منها أخشاباً لسفنها الراسية في ميناء «جبيل».

وفي منطقة «حصّيا» الواقعة في خراج قرطبا، توجد أطلال هيكل لم يبق منه سوى أساساته، يتميز بحجارته الضخمة المحكمة البناء. وقد جُدد بناؤه عام ١٥٥٦م على إسم مار الياس شفيع المنطقة. أما في الجهة الجنوبية للهيكل فتوجد معصرة للعنب في صخرة مسطحة نُقش عليها حصان، وبجانبها جرن كبير للعصير.

وإلى جانب المعصرة والهيكل، نبع غزير يدعى «النبع الكبير»، يشكل أحد أهم الينابيع التي تغذي نهر «أدون». هذا بالإضافة إلى عدد من المدافن المحفورة في الصخر، والتي عثر إلى جانبها على صحيفة معدنية تمثل رأس ثور له قرنان تعلو كل قرن كأس لشرب الخمر (٧٠).هذا النقش يرمز إلى الإله «أدون»، فالثور هو رمز الخصب، أما الخمر فكان يعاقر خلال ممارسة الطقوس الأدونية.

نستنتج مما تقدم، بأن قرطبا محطة مهمة من محطات الطقوس الأدونية، فوجود أطلال المعبد الضخم وإلى جانبه معصرة العنب والصحيفة المعدنية التي تمثل «أدون»، خير دليل على ذلك، هذا بالإضافة إلى فرضية تسمية البلدة بـ «قرية الأب» وما الأب سوى «إيل».

وفي قرطبا أيضاً، عثر على تمثال يعرف بـ «أبي اللات وزوجته»، موجود حالياً في المتحف الوطني.(٧١) واللات هي «الزهرة» عند العرب، يقابلها «عشتروت» عند الكنعانيين. وإسم اللات هو اختصار «الإلاهت» كما اختصر إسم

(٦٧) Condé, Bruce,- op.cit, p.128.
(٦٨) مرهج، عفيف، ـ أعرف لبنان، المرجع السابق، ج ٨، ص ١٧٣.
(٦٩) فريحة، أنيس، ـ معجم أسماء المدن، المرجع السابق، حرف القاف، ص ١٣٧.
(٧٠) مرهج، عفيف، ـ المرجع السابق، ص ١٧٤ ـ ١٧٦.
(٧١) مرهج، عفيف، ـ المرجع نفسه، ص ٧٦.

«الإله» فأصبح «الله»[٧٢]، وبذلك يكون «أبو اللات» هو أب الإلهة أي «إيل».

بالإضافة إلى ما ورد، فإن موقع قرطبا يتوسط الطريق المؤدي من المشنقة إلى أفقا والعاقورة، فكان من الطبيعي أن يقف المتعبدون في هذه البلدة. كما أن المناظر الطبيعية الخلابة في البلدة وإطلالتها على وادي نهر «أدون»، يضفي شيئاً من الرهبة والخشوع في نفوس الزائرين.

هـ ـ المشنقة :

تقع قرية المشنقة عند الضفة الشمالية لوادي «أدون»، على بعد ٤٨ كلم من بيروت وارتفاع ١٠٥٠م عن سطح البحر[٧٣]، حيث تتوسط الطريق بين جبيل وأفقا. أما تسميتها فهي مشتقة من لفظة مشنقتا Mashnaqta السريانية، وتعني «مكان العذاب والتنكيل»، ويرجح الباحثون أن الأمكنة التي تسمى بلفظ يفيد الألم والعذاب والنواح لها علاقة بالطقوس الأدونية[٧٤].

١ ـ نقوش «أدون وعشتروت» الصخرية : تعتبر المشنقة من أهم محطات الطقوس الأدونية، حيث نقش لبنانيو العصور الغابرة سبعة أنصاب، تمثل مشاهد من أسطورة «أدون وعشتروت». فعلى واجهتي صخرتين متقابلتين تشرفان على ممر ضيق ـ لا يتجاوز عرضه المترين ـ نقشان، يمثل أحداهما إمرأة جالسة بوضع حزين على مقعد، محتجبة بردائها، مسندة خدها إلى يمناها، يغلب الظن أنها «عشتروت».[٧٥] ويحيط بالنقش إطار مؤلف من عمودين متلاصقين، وإلى جانبي العمودين حنيتان صغيرتان، نُقش في كل منها شخصان يحدجان شخص الوسط، لكن عوامل التآكل الطبيعي قد شوهت ومحت القسم الأكبر من معالمها[٧٦].

ويمثل النقش الثاني المقابل، شاباً مؤتزراً واقفاً ضمن إطار شبيه بإطار النقش الأول، يحيط به، داخل أطر مربعة، شخصان آخران، تآكلت كل معالمهما تقريباً وأمَّحت[٧٧].

أما النقش السابع الموجود إلى الغرب من هاتين الصخرتين، فهو متوسط الحجم يمثل شخصاً مؤتزراً، واقفاً ضمن إطار يشبه الحنية، يحمل بيده اليسرى أداة للصيد ويضع اليمنى على صدره. أدت العوامل الطبيعية إلى تآكل معظم معالم هذا النقش، فبات من الصعب تحديد تفاصيله. معنى هذه النقوش إذا قوبلت بنقوش الغينة يتضح جلياً، فهي تمثل ترجمة لقصة «أدون»، أي موته ومناحة «عشتروت» عليه[٧٨].

يعلو هذا النقش مسطح صخري، نحتت فيه نواويس ضخمة، على شكل أجران مستطيلة لها أغطية مخروطية الجوانب[٧٩]، لكن بعض هذه الأغطية قد أزيل من مكانه الأصلي، فباتت أجوافها مكشوفة.

---

(٧٢) الحوت، محمود، ـ الميثولوجيا عند العرب، المرجع السابق، ص ٦٩.
(٧٣) مرهج، عفيف، ـ المرجع السابق، ج ٩، ص ٣٥٤.
(٧٤) مفرج، طوني، ـ الموسوعة اللبنانية - قرى ومدن لبنان، ج ٧، دار نوبليس، بيروت ٢٠٠٣، ص ٢٢١.
(٧٥) خوري، حرب، الديانة اللبنانية القديمة، المرجع السابق، ص ٢٩.
(٧٦) Condé, Bruce,- See Lebanon. Op.cit, p.126
(٧٧) Ranan, Ernest,- Mission de Phénicie, éd. Imprimerie Impériale, Paris 1864, p.284-285
(٧٨) لامنس، هنري، المرجع السابق، ص ٥٦.
(٧٩) لامنس، هنري، المرجع نفسه، ص ٥٥.

٢ ـ مقام «أدون»: هذه النقوش والنواويس المنحوتة في الصخر، ما هي سوى ملحق تابع لمقام ديني مربع الشكل، تحيط به أعمدة كورنثية الطراز، كان يعلوه، على زعم العالم الفرنسي أرنست رينان، هرم مخروطي الشكل. وهنا تجدر الإشارة إلى التصميم الذي وضعه رينان لهذا البناء، فجعله على شكل معبد يتوسط واجهته الأمامية مدخل، يشبه إلى حد كبير المداخل الجانبية لمعبد يانوح. أما الأعمدة فجعلها من الطراز الكورنثي ذات الشمعةالمضلّعة، يعلوها كورنيش Corniche مزخرف، مرفق بأربعة تيجان صغيرة موزعة على الزوايا الأربع للبناء، إلى أن ينتهي بهرم مخروطي الشكل.

لكن إذا نظرنا جيداً إلى هذا البناء، وتأملنا تفاصيله المعمارية، لوجدنا أنه بعيدٌ عن الصورة التي رسمها رينان له، فهو في الحقيقة بناء مدفني مربع الشكل، لا مدخل ظاهر له، والدليل على ذلك أنه مهدم من الجهة الشمالية - الغربية، ما يتيح الفرصة أمامنا لنتخيل التصميم الداخلي لهذا البناء، والذي يبدو وبشكل واضح أنه فارغ كلياً.

أما لو أطلنا النظر إلى الأعمدة المحيطة بالمقام، لوجدنا أنها تخلو من الزخرفة، فهي ليست مضلّعة،كما يميز تيجانها الطراز الدوري. تتوسط البناء ساحة مستطيلة مسورة، بابها من جهة الشرق محوط بعمودين متلاصقين. يبلغ طول السور الذي يحيط المقام ٩٥م بعرض ٥٠م، البناء يستند في جهته الشمالية إلى الصخر. وفي داخل السور في الجهة المقابلة للباب، بقايا أساس مربع بنيت فوقه أعمدة، لم يبق منها سوى قواعدها(٨٠).

على بعد أمتار قليلة من المقام والنقوش الصخرية والنواويس، يظهر الوادي المقدس- وادي نهر أدون، بحيث يمكن للناظر أن يحدد ويشرف على بلدتي يحشوش والغينة، بالإضافة إلى عدد من القرى المحيطة بالنهر.

وهكذا نرى مما تقدم ما للمشنقة من أهمية كمحطة أساسية من محطات الطقوس الأدونية، فهي تشرف على النهر المقدس، وتضم مقام البعل «أدون»، بالإضافة إلى الصخور التي تمثل نقوشها «أدون» و«عشتروت»، حيث كان يتدفق الحجاج ليتذكروا موت إلههم المحبوب(٨١).

و ـ الغينة :

تقع المدينة عند الضفة الجنوبية لـ «وادي نهر أدون»، ضمن قضاء كسروان على بعد ٣٦ كلم من بيروت وارتفاع ٩٥٠م عن سطح البحر(٨٢). ومن المرجح أن إسم الغينة قد اشتق من الجذر الآرامي Gin ومعناه «حفظ» و«حمى وصان»، فيكون الإسم إسم مفعول بمعنى «المحمية المصونة».(٨٣) ولكن الأكثر ترجيحاً أن الغينة هي لفظة فينيقية تأويلها النوح والغناء لكثرة بكاء «عشتروت» على «أدون»، ولكثرة غناء المحتفلين بعيدها بعدهما(٨٤).

(٨٠) لامنس، هنري، المرجع نفسه، ص ٥٤.
(٨١) الريحاني، أمين، ـ قلب لبنان، ط ٦، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٨، ص ٢٨٤.
(٨٢) مرهج، عفيف، ـ المرجع السابق، ج ٨، ص ٣٤.
(٨٣) فريحة، أنيس، المرجع السابق، حرف الغين، ص ١٢٩.
(٨٤) الحتوني، الخوري منصور، ـ نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية، دار نظير عبّود، بيروت ١٩٩٧، ص ١٣.

١ ـ نقوش «أدون وعشتروت»:

في هذه البلدة، سجل الفينيقيون حادثة مصرع «أدون» على نقش صخري، يبلغ ارتفاعه متراً و٩٦ سنتم وعرضه مترين و٨ سنتم. يمثل النقش شاباً عبل الساعدين شديد الجسم يرتدي مئزراً وبيده رمح مشرع كأنه متحفز للقتال، وقد صوب بسنانه إلى صدر حيوان ضار هجم عليه، وأسند إحدى قوائمه إلى كتفه كأنه يحاول افتراسه. وهيئة هذا الحيوان هي أقرب إلى الدب منها إلى الخنزير البري. وهذا الحيوان سواء أكان دباً أم خنزيراً برياً فإنه تشخيص لروح الشر، للقحط، لليباس وللموت.

وعند الطرف الجنوبي لهذا النقش، نقش آخر أصغر حجماً يمثل إمرأة رشيقة القد جالسة على مقعد كئيبة، رافعة يمينها إلى وجهها وبصرها مائل إلى صورة الشاب المقاتل. وعلى رأسها منديل يبلغ طرفاه إلى وسطها. أما رجلاها فتسندهما إلى مسند نقوشه على مثال المقعد التي هي جالسة عليه[٨٥].

على الصفحة الجانبية الشمالية من الصخر، نقش يمثل شخصاً واقفاً بيده رمح وخلفه حيوانان، يرجح أنهما كلبان. ويحتمل أن يمثل هذا النقش أحد مشاهد رحلة الصيد التي قام بها «أدون» قبل أن يصرعه الحيوان البري. وفي أسفل الصخرة مغارة مدفنية قد تكون نحتت لتصبح بمثابة رمز يخلد ذكرى موت «أدون»، وليست قبراً حقيقياً لشخص معين[٨٦].

تحت هذه الصخرة، يوجد نقش باللغة الفرنسية، نعلم منه أن الكاتب والسياسي الفرنسي Maurice Barres (١٨٦٢ ـ ١٩٢٢٣) قد زار المكان. فيقول: «هنا وقف موريس بارس ليحب ويفهم أرواحنا» Ici Maurice Barres . Sarrêta pour Aimer et Comprendre Nosâmes.

وهو يعني بذلك أرواح لبنانيي العصور الغابرة، الذين عبدوا «أدون»، ووقفوا عند هذه الصخرة تحية له وتخليداً لذكراه[٨٧].

٢ ـ معبد الغينة: ليس بعيداً، عن هذه النقوش الصخرية، أطلال معبد (بطول ١٦م وعرض ٩م)، يعود إلى الفترة الواقعة ما بين أواخر العهد اليوناني وبدايات العهد الروماني، ومن المرجح أنه كان مخصصاً لعبادة «أدون»، وقد تحول في العهد البيزنطي إلى كنيسة رصفت أرضها بالفسيفساء الجميلة. وإلى شمال المعبد يوجد بعض النقوش والزخارف التي تضفي على المعبد ميزة خاصة[٨٨].

خلاصة لما ورد، نرى بأن الغينة هي من أهم المحطات التي كان يتوقف عندها المؤمنون القدماء الذين تعبدوا لـ «أدون وعشتروت»، حيث أنهم «كانوا يعتقدون بأن البعل «أدون» قد قتل في هذه البلدة، ودفن في المغارة الموجودة تحت الصخرة المنقوشة[٨٩].

ز ـ يحشوش:

إن موقع يحشوش وامتدادها من أسفل الجبل إلى أعلاه، يجعلنا نعتبرها ساحلاً وجرداً. فهي تبدأ من ارتفاع ٢٠٠م وتنتهي بـ ٨٥٠ م، وتقوم منازلها متفرقة على تلال مجاورة متلاصقة، تشرف من أعلاها إلى أسفلها على

(٨٥) لامنس، الأب هنري، ـ المرجع السابق، ص ٥٢.
(٨٦) خوري، حرب، أنطوان، الديانة اللبنانية القديمة، المرجع السابق، ص ٢٨.
(٨٧) الريحاني، أمين، المرجع السابق، ص ٣٤١.
(٨٨) Condé, Bruce,- See Lebanon. Op.cit, p.90
(٨٩) الحتوني، الخوري منصور، ـ المرجع السابق، ص ١٢.

«وادي أدون»[٩٠]، لذا كان لموقعها الفضل الأكبر بإعطائها المناظر الطبيعية الخلابة.

أما إسم يحشوش فهو تصحيف «حاشوشا» Hashusha، التي تعني بالسريانية «المتألم والمعذب». وقد يكون لهذه القرية علاقة بالطقوس الدينية الفينيقية القديمة، التي كانت تدور حول عذاب «أدون» وموته ثم إنتصاره للحياة[٩١].

ويُروى بأن «أدون» عندما هاجمه الخنزير البري توقف في هذه البلدة، وتألم هناك قبل أن يصل إلى أفقا[٩٢]. ويشير العديد من المؤرخين إلى وجود هيكل لعبادة «أدون» في هذه البلدة، ولكن لا أثر له اليوم.

٧ ـ إستفتاء سياحي :

نظراً للأهمية الكبيرة والشهرة، التي تتمتع بها قصة «أدون وعشتروت»، والتي تعتبر من أعمدة الميتولوجيا الفينيقية وأشهرها، ولتبيان مدى معرفة المواطنين في لبنان لهذه الأسطورة، ولأماكن حدوثها، تم توزيع ١٠٠ إستمارة على أصحاب الإختصاصات التالية: تاريخ، آثار، جغرافيا، بالإضافة إلى عدد من الأساتذة والطلاب المتنوعي الإختصاصات. فتبيَّن بنتيجة الفرز، بعد جمع الإستمارات وتحليلها، أن هناك نسبة كبيرة لا تعرف هذه الأسطورة وأبطالها، ومكان حدوثها «في وادي نهر إبراهيم»، ولا تعرف أهميتها التاريخية والأسطورية، ومدى إرتباطها بتاريخ لبنان القديم عموماً ومنطقة جبيل خصوصاً.

وكانت النتائج كالتالي :

١ ـ أين يقع «وادي نهر أدونيس«؟

A بين قضائي المتن وكسروان

B بين قضائي زغرتا والكورة

C بين قضائي جبيل وكسروان

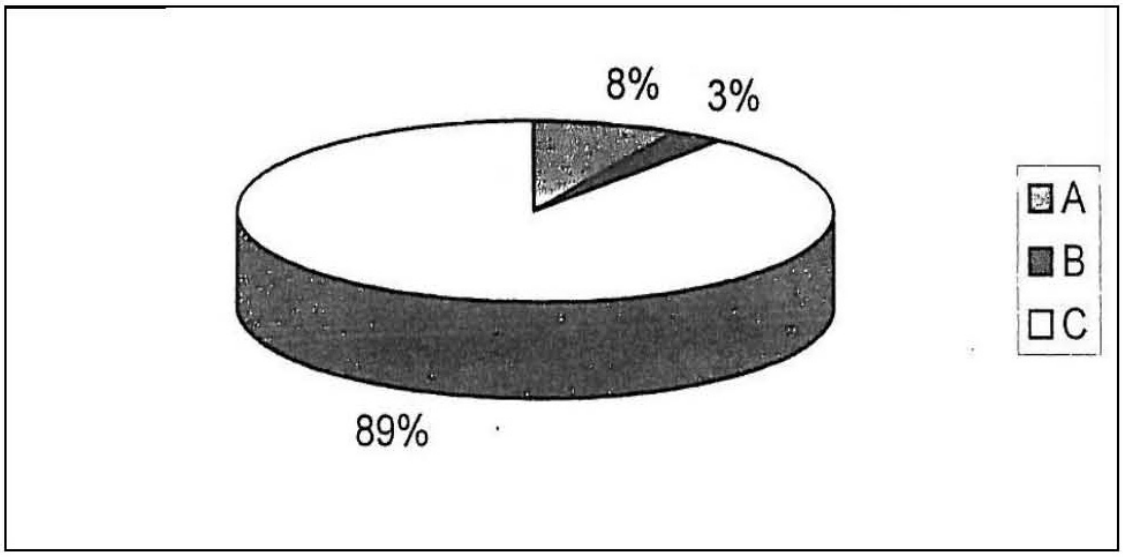

ـ المطلوب كان وضع علامة X في المربع خلف الجواب.

(٩٠) مرهج، عفيف، ـ المرجع السابق، ج ٩، ص ٦١٤.
(٩١) فريحة، أنيس، المرجع السابق، حرف الياء، ص ١٨٩.
(٩٢) مرهج، عفيف، ـ المرجع السابق، ج ٩، ص ٦١٤.

٢ ـ ينطبق إسم «وادي أدونيس» على؟

A وادي نهر الكلب

B وادي نهر إبراهيم

C وادي نهر قايشا

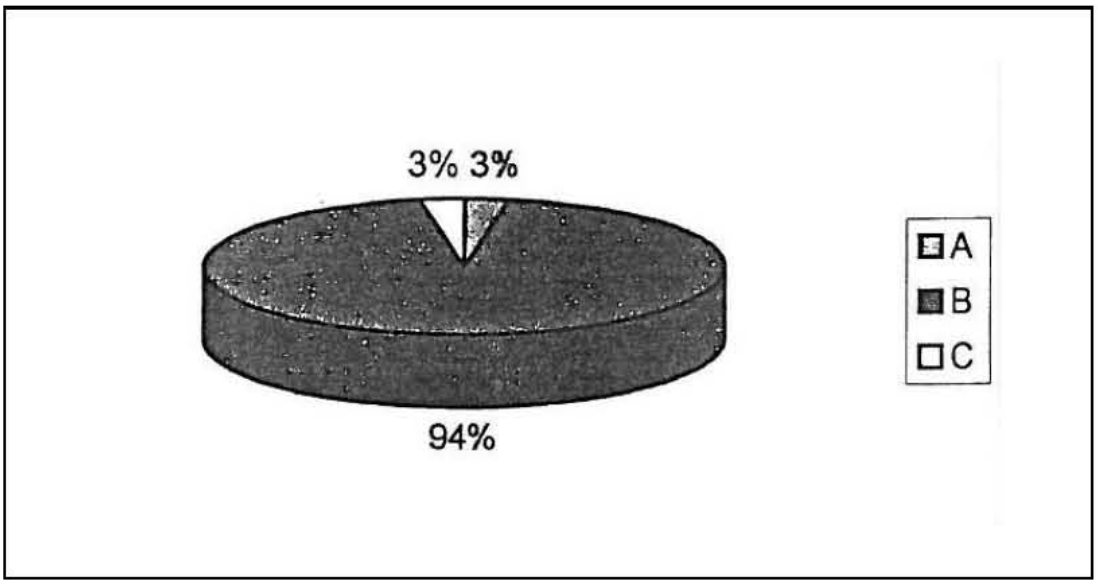

٣ ـ هل تعرف من هو «أدونيس» نعم لا

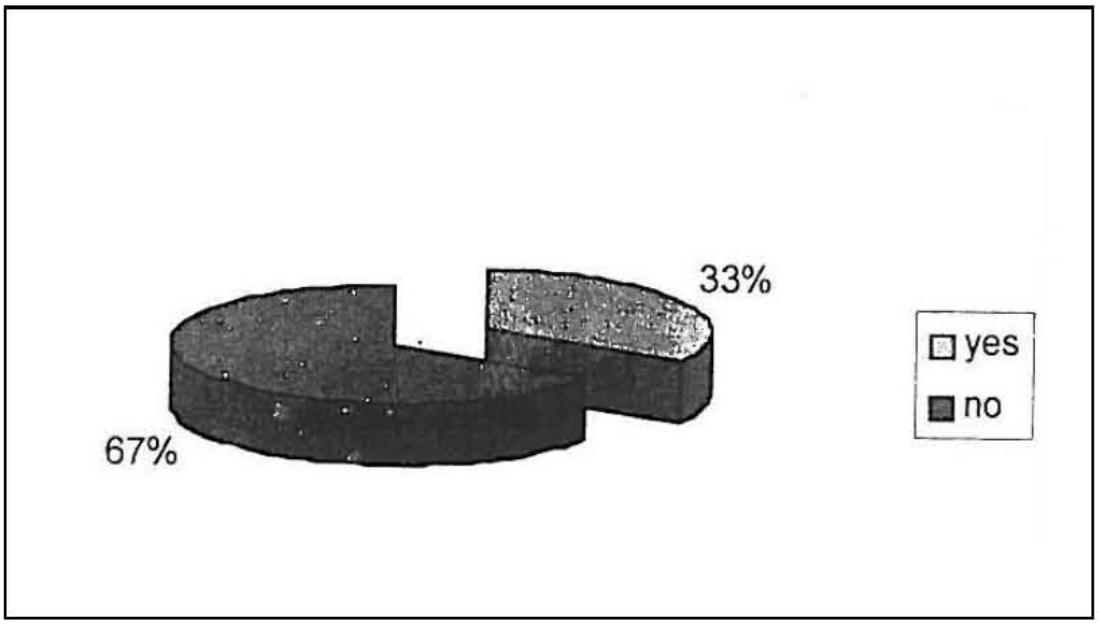

٤ ـ هل تعرف من هو «أدون» نعم لا

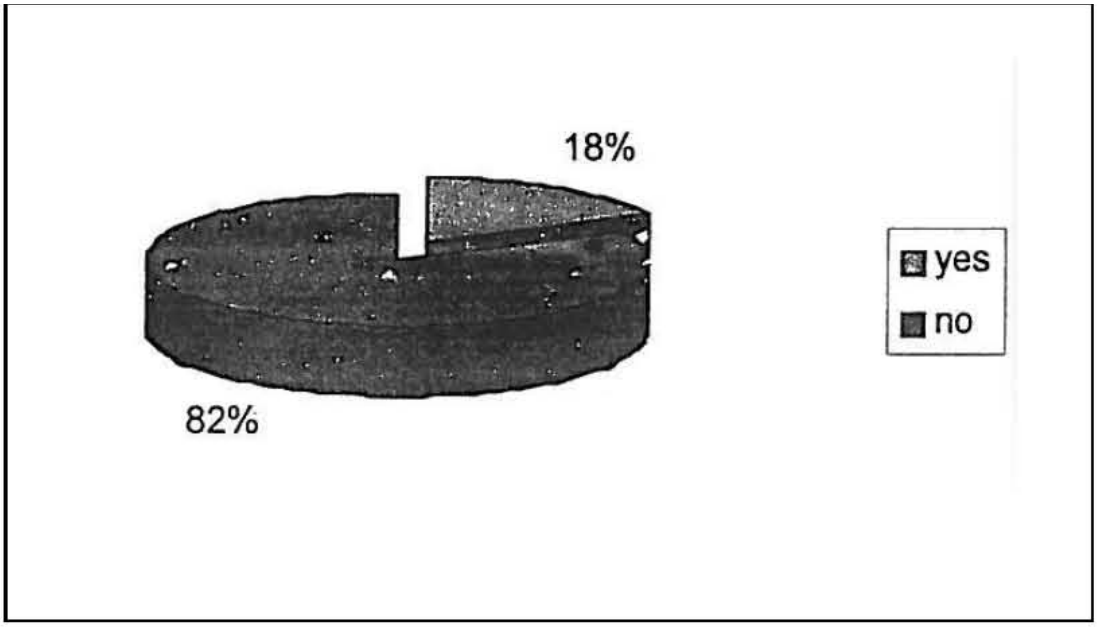

٥ ـ هل هناك فرق بين«أدون» و«أدونيس» نعم لا

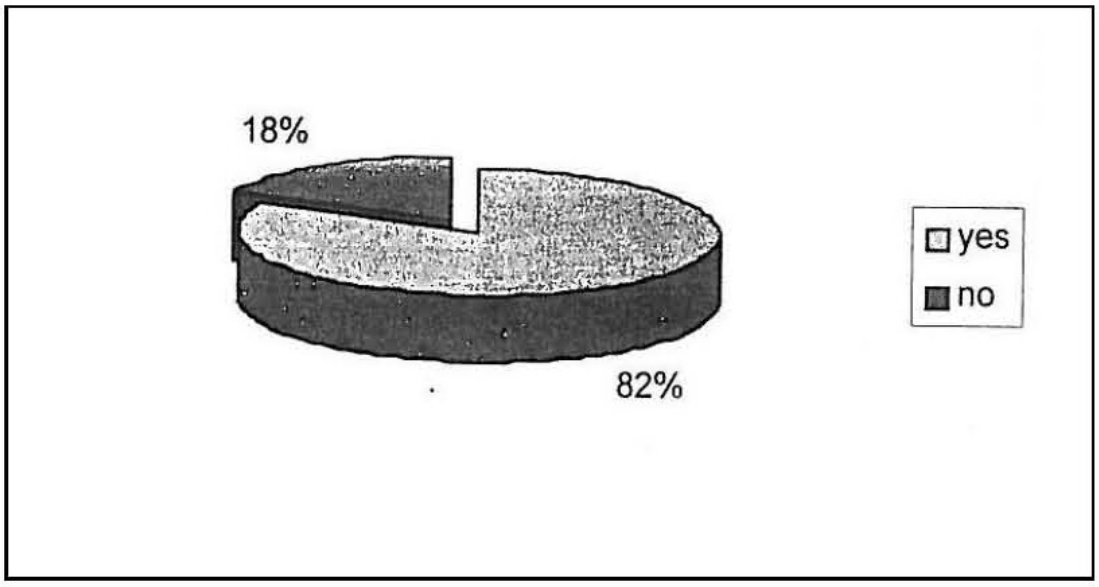

٦ ـ وقعت أحداث أسطورة «أدونيس وعشتروت» في :

A منطقة أفقا

B فقرا

C وادي نهر قاديشا

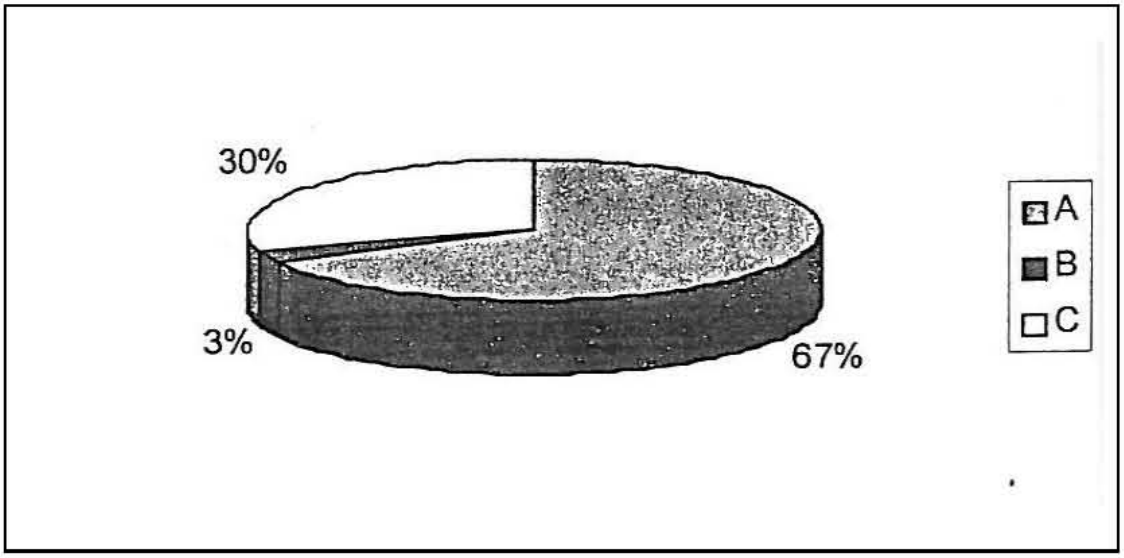

٧ ـ هل تعرف ما هي الأدونيات أو الطقوس الأدونية؟ نعم لا

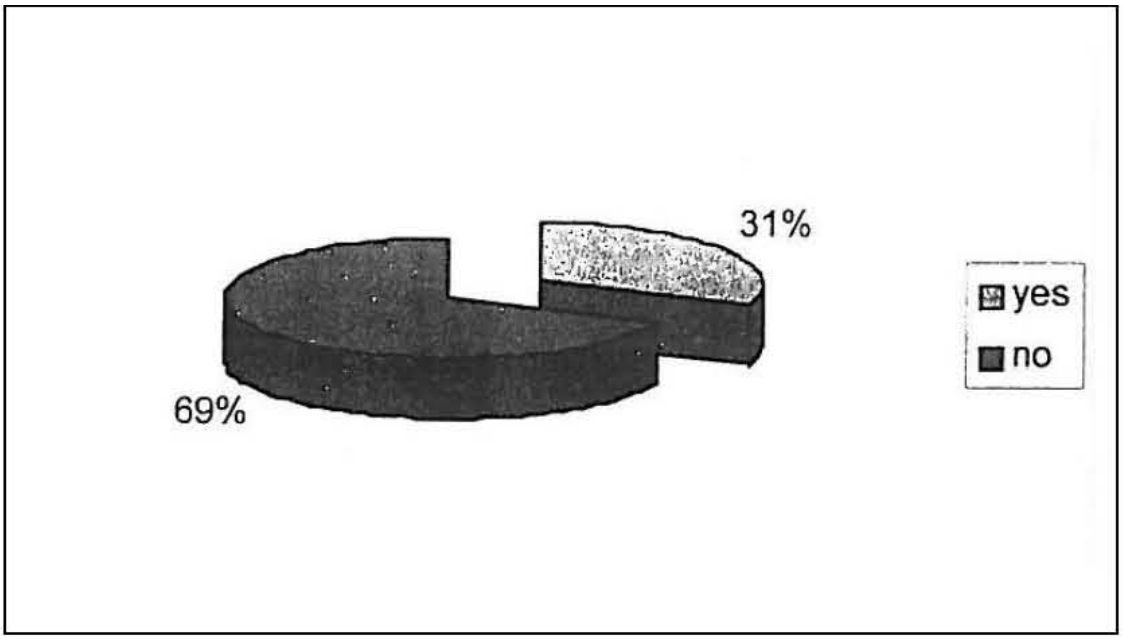

٨ ـ يبدأ الإحتفال بالأدونيات إبتداءً من:

A فصل الصيف

B فصل الربيع

C فصل الشتاء

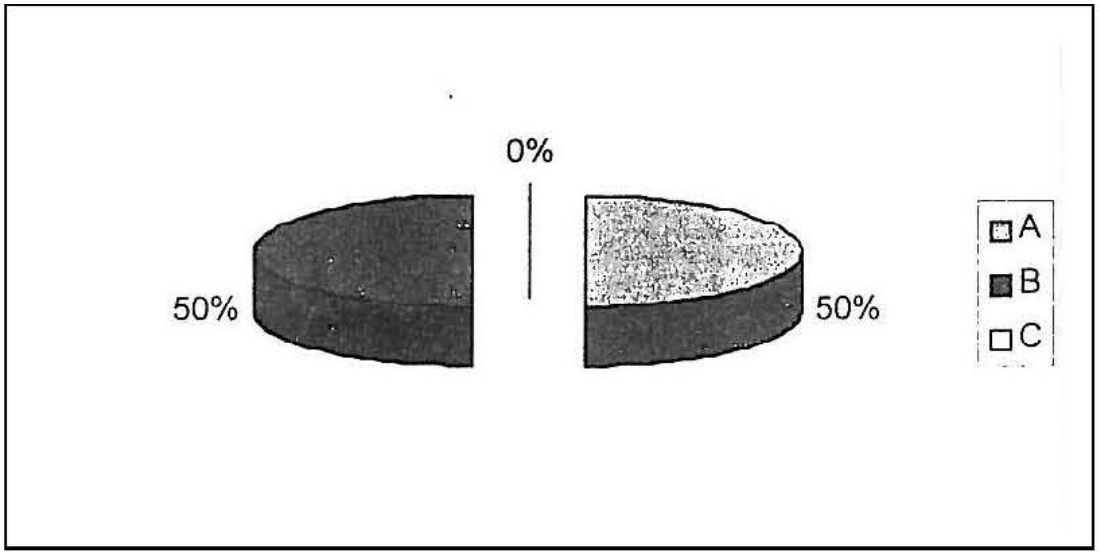

٩ ـ يستمر الإحتفال بهذه الطقوس مـدة:

A ٧ أيام

B ٣ أيام

C يوم واحد

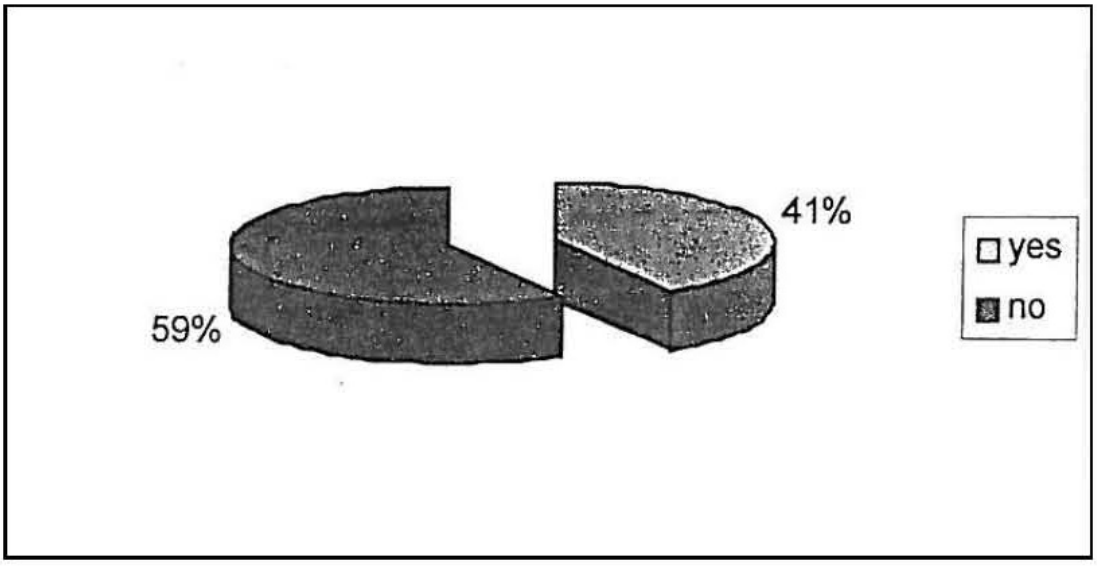

١٠ ـ هل تعرف المناطق التي ترتبط بالطقوس الأدونية؟

نعم

لا

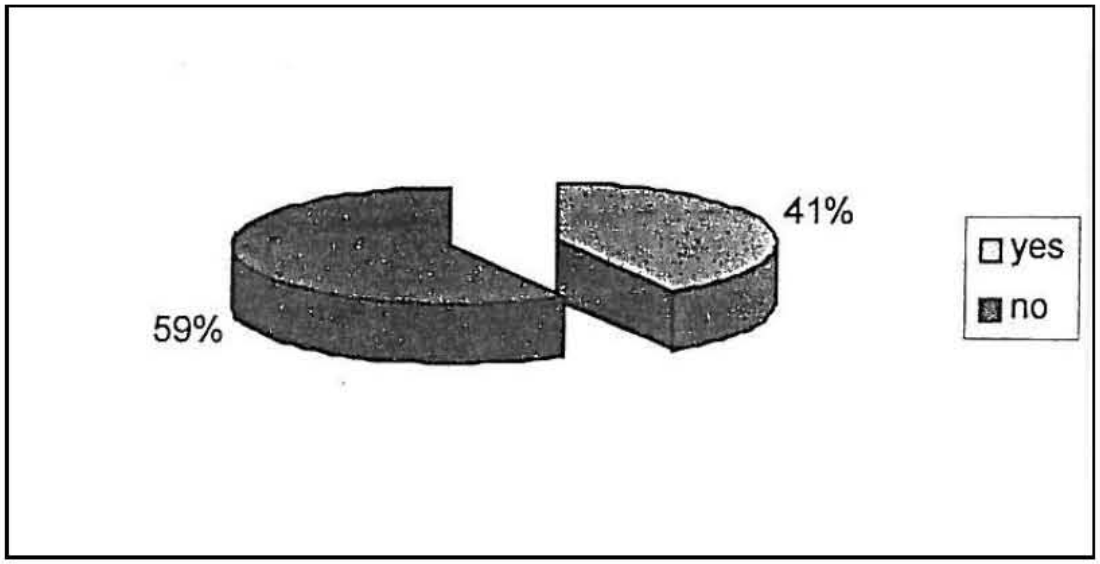

١١ ـ تقع بلدتي أفقا والمشنقة في قضاء :

A كسروان

B المتن

C جبيل

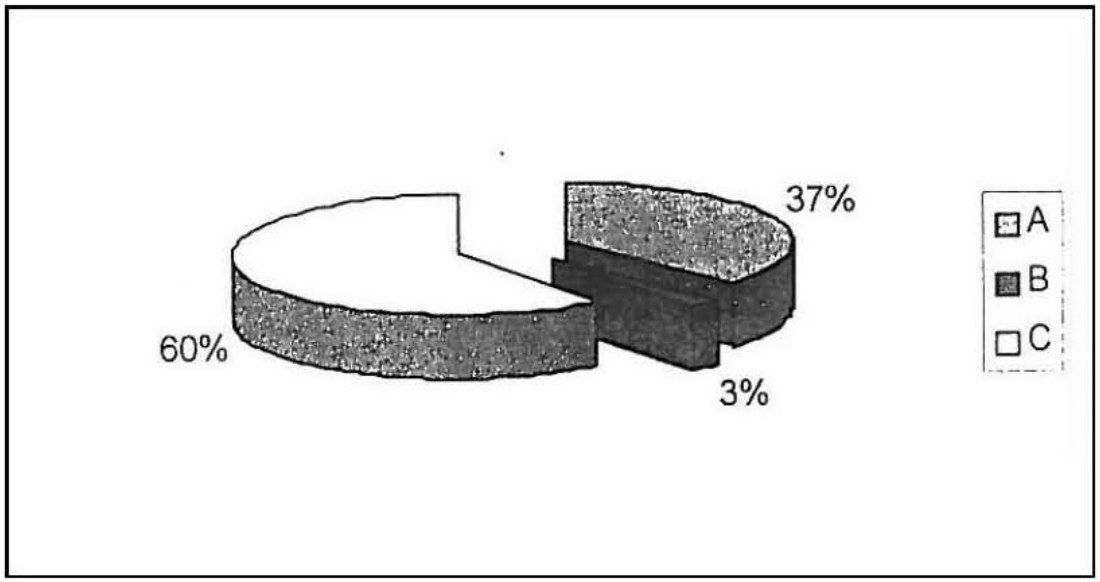

١٢ ـ هل زرت منطقة أفقا من قبل؟

نعم

لا

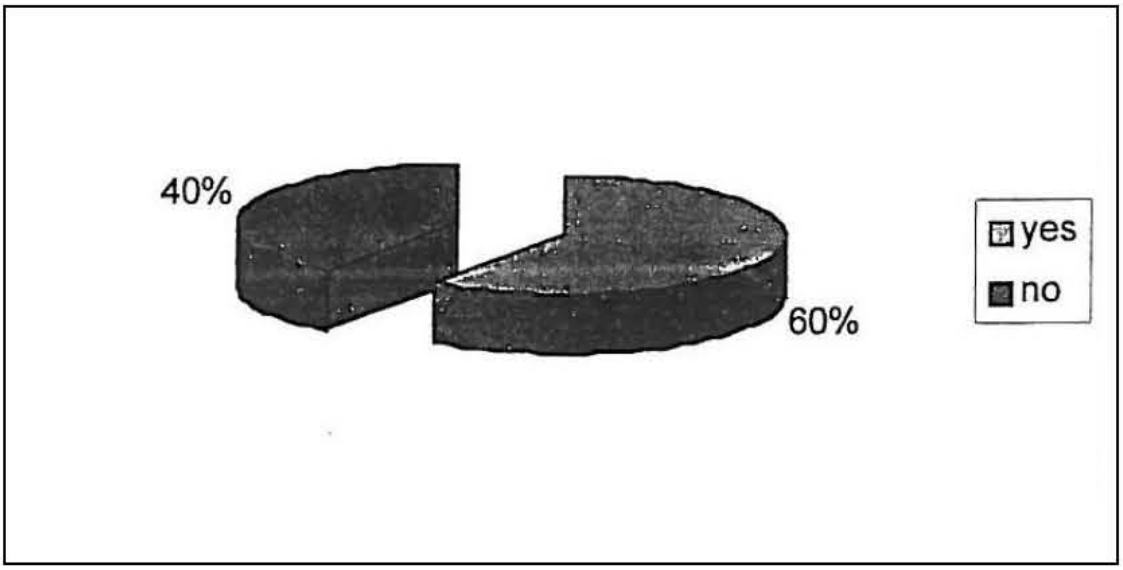

١٣ ـ تقع بلدتي يحشوش والغينة في قضاء:

A كسروان

B المتن

C جبيل

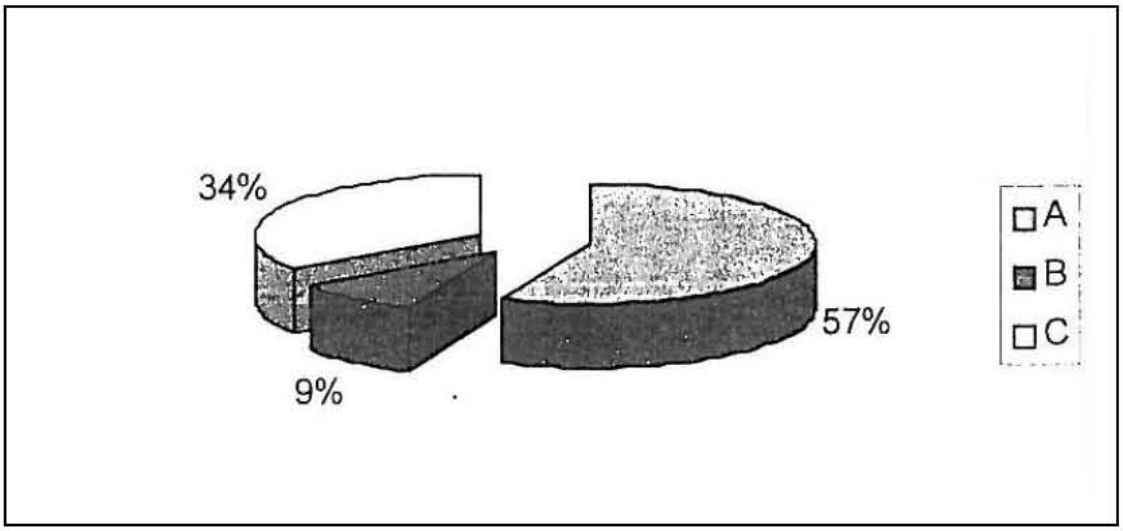

١٤ ـ هل زرت منطقة يحشوش من قبل؟

نعم

لا

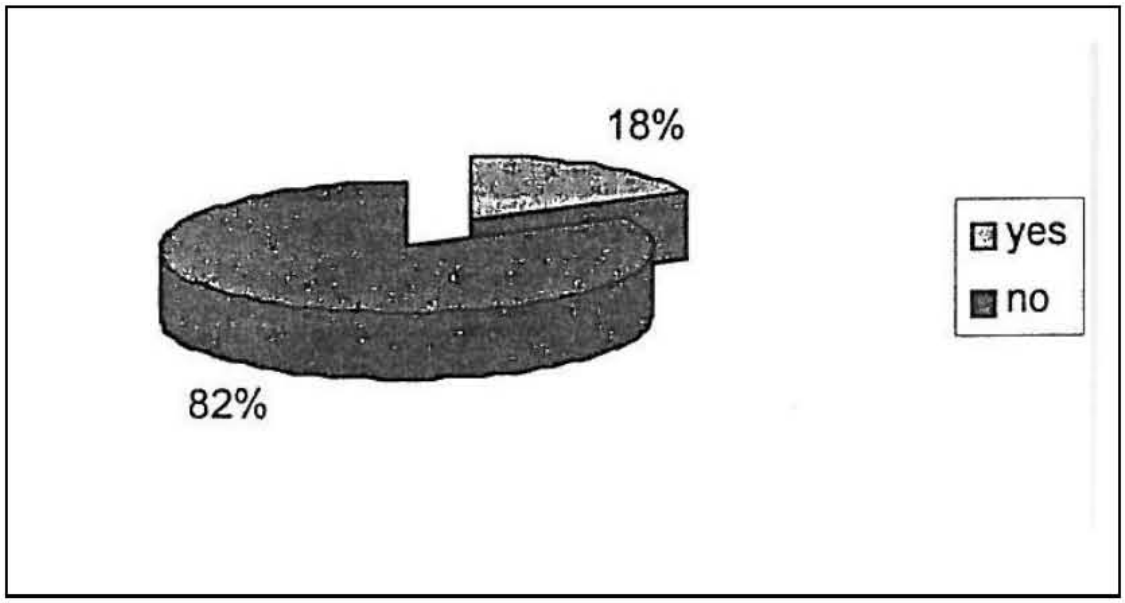

١٥ ـ هل ترغب بممارسة رياضة المشي الـ Trekking في منطقة «وادي أدونيس ؟
نعم
لا

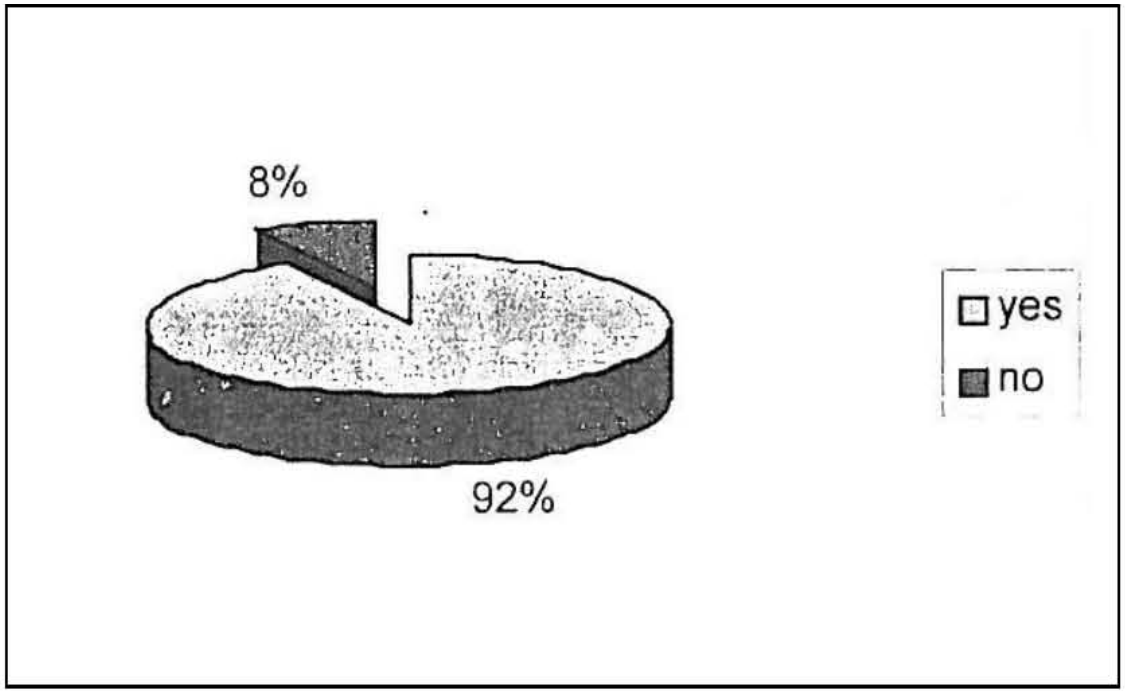

٨ ـ يتبيَّن لنا من سياق البحث أن ديانة الفينيقيين كانت مجموعة من الطقوس والعبادات تقيمها المدن الفينيقية، وتختلف من مدينة إلى أخرى، وإن اشتركت جميعها في نظرة القوم العامة، وفي الظواهر الكونية والطبيعية، وكانت طقوس العبادة منبثقة من حياة القوم الزراعية، وكان القحط يهددهم، والرياح الحارة التي تهب من الصحراء كانت تقضي على مزارعهم، كما كان القوم مهددين بقلة المطر، أو بسقوط البَرَد الذي يتلف الزرع والضرع.

ومن ثم فقد لجأ الفينيقيين، إلى أن يضفوا على الطبيعة وظاهراتها، صفات إنسانية، وأن يقدم لها المرء القرابين يسترضيها بها، ثم أوجد سلسلة من العبادات بغية التأثير على هذه الطبيعة.

وهكذا كانت المعبودات الفينقية - شأنها في ذلك شأن غيرها في معظم الديانات القديمة - تدور حول تقديس مظاهر الكون، وعبادة الطبيعة، ومن ثم فقد كان لكل مدينة فينيقية، «بعلها» - أي سيدها. وكان ربط الآلهة بأماكن عبادة ثابتة، يؤدي إلى التمييز فيما بينها، فتصبح عندئذ كائنات محلية ذات خصوصية نسبية. أن «وادي نهر أدون» أو «وادي نهر إبراهيم»، يتميز ببيئته الطبيعية الجميلة التي جعلت اللبناني القديم يستوحي مشاعر تدينه وطقوس عبادته منها، فما كان منه إلا أن أنْسنَ مظاهرها وقدّسها وجعل منها قوى تتحكّم بمسار حياته.

تقوم أسطورة «أدون» التي نقلها لنا كتّاب من العصر القديم، على حكاية بسيطة: يحب الصياد الفتى «أدون» الإلهة «عشتروت»، لكن الإله المحارب رِشِف يغار منه فيكلف خنزيراً برياً بقتله، في أثناء واحدة من رحلات الصيد التي يقوم بها. يتحقق. مرام إله العالم السفلي، فيترنح «أدون» مثخناً بجراحه نحو المغارة التي درج على مقابلة «عشتروت» فيها، حيث يموت بين ذراعيها. تسارع الإلهة إلى العالم السفلي، كي تعيد حبيبها إلى الحياة من جديد، غير أن بِرسِفون، سيدة أرواح الموتى، لا تسمح بعودته إلا في الثلث الأخير من كل عام. هذه الملاحظة الأخيرة تفصح عن طبيعة «أدون» كإله للنبات، يبعث إلى الحياة خلال حقبة الإنبات من كل عام؛ فهو يموت في الصيف ويُبعث من جديد في الربيع.

إن هناك ارتباطاً وثيقاً بين أسطورة «أدون»، وبين «نهر إبراهيم»، الذي بقي إسمه «نهر أدون»، إلى مطلع العصر الوسيط. فقد اعتُبرت مغارة نبع النهر العملاقة في أفقا، الكهف الذي مات «أدون» فيه متأثراً بجراحه، واعتُبر اللون الأحمر، الذي تصطبغ مياه النهر به من حين لآخر، بسبب ما يحمله من تربة حمراء، دم الإله القتيل. يفسر هذا أسباب تركز عبادة «أدون»، في معابد «وادي نهر إبراهيم» أساساً؛ وهي عبادة كانت تبلغ ذروتها في الشكوى من موته في الصيف، وتفرض على مواكب الحجاج الذهاب إلى أفقا، البعيدة عن مدينة جبيل، في مسيرة لثلاثة أيام.

وكانت احتفالات بعث «أدون»، تجتذب الكثيرين، حيث كانت النساء يضحين بعفتهن وشعورهن، وكانت تمارس في الحفلات طقوس العويل والضرب بالعصي، تتبعها طقوس بعث «أدون»، التي يميزها ما يتم خلالها من دعارة وتهتك وفجور، ذلك لأن عبادة «عشتروت»، كذلك في الوقت نفسه، تمجيد إخصاب الطبيعة، وكان الكهنة والخصيان يرقصون رقصاً عنيفاً، ويطعنون أنفسهم بالمدى والسكاكين، فإذا كان الليل جاء الكهنة بنور خفي، وفتحوا قبر الإله الشاب «أدون»، ونودي بأنه قام من الأموات.

وهنا يمسون شفاه عُبّاد «أدون»، ببلسم في أيديهم، ثم يُسِرّون لهم بإنهم سيقومون من قبورهم يوماً ما ـ كما فعل «أدون»، ـ وعندئذٍ يعم الفرح الناس، ولا سيما النساء فينذر

بعضهنّ عفافهن، ولقد نشأت هذه الدعارة الدينية، أو البغاء المقدس مع عبادة «عشتروت».

أن أسطورة موت «أدون» ليست صراعاً بين الآلهة في عالم غير عالم الإنسان، بل هي صراع بين الخصب والجفاف، أي بين موت الطبيعة وإعادة انبثاقها وقيامتها من جديد. كذلك إن علاقة اللبنانيين القدماء بآلهتهم لم تكن مبنية على الرهبة والخوف من قواها، بل كانت عبارة عن مشاركة الآلهة بمشاعرها، فهم يحزنون لموت الإله «أدون»، ويفرحون لبعثه، وفي ذلك إدراك للتوازن القائم بين القوى الطبيعية وتعاقب الفصول. كما إن «وادي نهر أدون»، يضم بعض المناطق الطبيعية والأثرية، التي تبرز الأهمية التاريخية والسياحية للمنطقة، التي عبد فيها الإله «أدون»، (**الوادي، مغارتي أفقا والرويس،المشنقة,يانوح**...)، والمرتبطة بأسطورة الإله «أدون»، وبالبيئة الطبيعية التي حضنتها.

لذلك يجب على المسؤولين عن لبنان، العمل على إبراز هذه المنطقة، منطقة «وادي نهر أدون» (إبراهيم)، والإضاءة عليها، وتنميتها، ووضع خطط إنمائية سياحية، وخاصة في مجال السياحة البيئية، مما يسمح باستقطاب العديد من زوار الداخل والخارج، مما يساهم في إنعاش المنطقة بكاملها.